

فلا
التنوير الإسلامي

«٦٨»



الشيخ

عبد الرحمن الكواكبي

هل كان علمائنا؟!

تأليف
د. محمد حنيفة



الشيخ
عبد الرحمن الكواكبي
هل كان علمانياً؟

تأليف
د. محمد عمار



تقديم

للتقريب والاستلاب الحضارى العديد من الطرق والوسائل
والأساليب:

■ فمنها الأسلوب المباشر والصريح، الذى يعرض أصحابه
النموذج الغربى فى النهوض والتقدم، قائلين تعالوا إلى هذا
النموذج، فهو الأقدر على تحقيق التقدم والنهوض للشرق
الإسلامى. بل ولكل أنحاء العالمين. ولقد أثبت ذلك بنجاح
كبير فى عالم الشعوب الغربية. وليس صحيحاً أن هناك
خصوصيات ثقافية وحضارية تمايز بين الأمم والشعوب.
فالطريق - كما قال الدكتور طه حسين فى مرحلة تبشيره
بالنموذج الغربى «واحدة واضحة بيّنة مستقيمة ليس فيها
عوج ولا التواء، وهى واحدة فذة ليس فيها تعدد، وهى أن
نسير سيرة الأوربيين ونسلك طريقهم، لنكون لهم أنداداً،
ولنكون لهم شركاء فى الحضارة، خيرها وشرها، حلوها
ومررها، ما يحب منها وما يكره، ما يُحمد منها وما يُعابى.
والعقل الشرقى هو كالعقل الأوروبى، يونانى الطابع
والتكوين. لم يغير القرآن من يونانيته، كما لم يغير الإنجيل
من يونانية العقل الأوروبى» [مستقبل الثقافة فى مصر ج ١
ص ٢١، ٢٢، ٢٩، ٤٥].

■ وغير هذا الطريق - الواضح والصريح - للتغريب، هناك طرق
يمعن أصحابها فى النفاق والإخفاء والتزييف والتلبيس. وذلك

عندما يذهبون إلى دعوى علمنة الإسلام ذاته.. ومن ثم يقدمون علماء الإسلام، ومشاريعهم الإصلاحية باعتبارها دعوات علمانية.. ثم يقولون لنا:

- أليس هؤلاء هم زعماء الإصلاح في عالم الإسلام؟ إنهم علمانيون، يثبتون النموذج العلماني في التقدم والإصلاح.. فتعالوا نسير وراءهم في هذا الطريق - العلماني - فليس هناك طريق آخر سواه!

• • •

وإذا كنا قد عرضنا وفندنا وفضحنا هذا الأسلوب من أساليب الخبث العلماني في كثير مما كتبنا دفاعاً عن «التمايز الحضاري» للإسلام ونموذجه في التقدم والنهوض.. وكان من حظ هذه السلسلة «في التنوير الإسلامي» تلك الدراسة التي قدمناها عن (ابن رشد بين الغرب والإسلام) - والتي فندنا فيها محاولات المتغربين مسخ هذا الفيلسوف المسلم.. والمتكلم الإسلامي.. والفقيه المالكي.. وقاضي قضاة الشرع في قرطبة.. وذلك بتقديمه على أنه «مادي.. وملحد.. وعلماني.. وتنويري.. بالمعنى الوضعي الغربي».

إذا كنا قد قدمنا تلك الدراسة عن ابن رشد [٥٢٠ - ٥٩٥هـ / ١١٢٦ - ١١٩٨م] - في الحلقة الخامسة من هذه «السلسلة».. فإننا نقدم اليوم هذه الدراسة عن المصلح الإسلامي الكبير الشيخ عبد الرحمن الكواكبي [١٢٧٠ - ١٣٢٠هـ / ١٨٥٤ - ١٩٠٢م].

ذلك الذي حاول الحزب السوري القومي، وباحثه المثابر الأستاذ «جان داية» - ومن قبله زعيم الحزب «أنطون سعادة» [١٩٠٤ - ١٩٤٩م] - حاولوا «سرقه» الكواكبي من موقعه المرموق في صفوف زعماء الإصلاح الإسلامي، وتقديمه في صورة العلماني، الذي يدعو أمته إلى سلوك طريق العلمانية الغربية للتقدم والنهوض.

لقد كان الكواكبي من أوائل زعماء الإصلاح الذين كتبنا عنهم - منذ مرحلة الدراسة في كلية دار العلوم في عقد الخمسينيات من القرن العشرين - ثم جمعنا وحققنا ودرسنا أعماله الفكرية الكاملة التي تصدر لها الطبعة الثالثة - مزيدة في الدراسة وفي النصوص - هذا العام سنة ٢٠٠٦م.

وبهذه المناسبة، نقدم في هذه «السلسلة» - هذه الدراسة التي ترفع الظلم عن هذا المصلح الإسلامي الكبير - وترد الافتراء العلماني عن هذا العالم الفذ من علماء الإسلام في عصرنا الحديث..

والله من وراء القصد.. نسأله - سبحانه - التوفيق والسداد..

د. محمد عتاقة

بطاقة حياة

- عبدالرحمن الكواكبي [١٢٧٠ - ١٣٢٠ هـ / ١٨٥٤ - ١٩٠٢ م].
هو: عبدالرحمن أحمد بهائي بن محمد بن مسعود الكواكبي.
- ولد في حلب سنة ١٢٧٠ هـ / ١٨٥٤ م، من أسرة «شريفة» ذات نفوذ علمي وإداري.. تتوارث الإشراف على نقابة «الأشراف» ويرتفع نسبها إلى الإمام علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه.
- ولقد تعلم الكواكبي العلوم الموروثة - علوم العربية والشريعة الإسلامية - كما تعلم العلوم الحديثة.. وأجاد - مع العربية - اللغتين التركية والفارسية.
- واشتغل الكواكبي بالصحافة، وهو في الثانية والعشرين من عمره، في صحيفة «فرات» - التي كانت تصدر بالتركية - في مناخ قرض فيه العثمانيون سياسة «التريك» على الولايات العربية «العثمانية» في المشرق العربي.. ثم أصدر - للمرة الأولى - صحيفة عربية - في حلب - هي (الشهباء).. فلما أغلقها الأتراك أصدر صحيفة (اعتدال) فلاقته ذات المصير.
- ولقد احتل الكواكبي عدداً من المناصب الإدارية والاقتصادية الهامة في ولاية «حلب» واحترف التجارة فترة من الزمن.. كما كان مرجعاً للمحاماة في القانون.. وعمل «عرضحالياً» يحرر ظلامات المظلومين ضد ولادة الأمور الأتراك!

■ دخل السجن سنة ١٣١٠ هـ / ١٨٩٢ م متهمًا بمحاولة اغتيال
الوالي التركي على حلب، وحكم عليه بالإعدام من القضاء
التركي في حلب.. فلما ثارت جماهير الولاية، وافقت الدولة
العثمانية على إعادة محاكمته أمام محكمة بيروت، فبرأته
المحكمة من التهمة التي حاولوا إلصاقها به، وهي الاتفاق مع
دولة أجنبية ضد الدولة العثمانية

■ هاجر الكواكبي - سرًا - إلى مصر سنة ١٣١٧ هـ / ١٨٩٩ م..
ونشر فصول كتابه الفذ والفريد «طبايع الاستبداد ومصارع
الاستعباد» في صحيفة «المؤيد» بدون توقيع

■ طبع بمصر كتابيه «أم القرى»، وهو «مذاكرات» محاضر
اجتماعات مؤتمر جمعية أم القرى - الذي عقد بمكة - وحضره
ممثلون للأمة الإسلامية لدراسة أسباب تخلف المسلمين، وسبل
إنهائهم.. وكذلك «طبايع الاستبداد».. نشرهما باسم مستعار،
هو «الرحالة ك»:

■ قام برحلة إلى المشرق، زار فيها العديد من بلاد آسيا وإفريقيا
الإسلامية.. ومات وهو يعتزم القيام برحلة مماثلة إلى بلاد
المغرب الإسلامي.. وكتب عن رحلته هذه كتابًا ضاعت أصوله
قبل أن يرى النور.

■ عندما انتقلت روحه إلى بارئها - فجأة - في ٧ ربيع الأول سنة
١٣٢٠ هـ / ٤ يونيو سنة ١٩٠٢ م - صادر مندوب من قبل
السلطان العثماني عبدالحميد الثاني (١٢٥٨ - ١٣٣٦ هـ /

١٨٤٢ - ١٩١٨م) جميع الأوراق الخاصة بالكواكبي، حيث حُملت إلى السلطان، ولم يظهر لها أثر فيما بعد، وضمنها أصول كتابين لم ينشرا، هما «العظمة لله» و«صحائف قريش».

■ وفي فكر الكواكبي، اجتمعت الدعوة إلى الجامعة الإسلامية مع الدعوة إلى تمييز الأمة العربية بالريادة والقيادة في المحيط الإسلامي، فامتزجت - عنده - العروبة بالإسلام، كأوضح ما تكون.. ومنه صدرت الدعوة لإعادة الخلافة إلى الأمة العربية، مع الدعوة إلى الجامعة الإسلامية التي تقيم اتحادًا تضامنيًا وتعاونيًا بين كل الدول والسلطنات الإسلامية.. لتجديد عز الإسلام.

■ وكان مذهب الكواكبي في الإصلاح هو مذهب المدرسة الإحيائية التجديدية، التي تدعو إلى البدء - في الإصلاح - بالأصول قبل الفروع.. وبالتربية للأمة وصولاً لسياسة الدولة وبالإصلاح الديني قبل الإصلاح الإداري والسياسي.. فالأمة قبل الدولة.. والدعوة قبل السياسة.

■ يضعه فكره الاجتماعي بين الرواد الأوائل لدعاة الاشتراكية في تراثنا العربي الإسلامي الحديث. والاشتراكية عنده نابعة من القرآن الكريم ومن الخلق العربي الذي صاغه الإسلام.. ومن المواخاة التي أقامها رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار.

■ عندما حمل المشيعون جثمان الكواكبي ليواروه قبره - فى
مقابر «باب الوزير» بسفح جبل المقطم بالقاهرة، كتبوا على
قبره كلمة «الشهيد» لتشير بأصابع الاتهام إلى موته مسموماً
بتدبير من السلطان عبدالحميد

وعندما جددت مصر قبره.. ونقلت رفاته إلى قبره
الجديد.. كتب عليه بيتان من الشعر، لشاعر النيل حافظ إبراهيم
(١٢٨٧ - ١٣٥١هـ / ١٨٧١ - ١٩٣٢م) هما:

هنا رجل الدنيا، هنا مهبط التقى

هنا خير مظلوم، هنا خير كاتب

قفوا واقروا أم الكتاب وسلموا

عليه، فهذا القبر قبر الكواكبي

دعوى علمانية الكواكبي!

لقد بدأت علاقتي بفكر الكواكبي (١٢٧٠ - ١٣٢٠ هـ / ١٨٥٤ - ١٩٠٢ م) ألقى منتصف خمسينيات القرن العشرين. عندما كنت طالباً بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة قرأت كتابيه «طبائع الاستبداد» و«أم القرى». وكنت عنه وعن فكره بحثاً لأعمال السفة» بالكلية. ثم نشرت هذا البحث في مجلة «العهد» - عدد يناير سنة ١٩٥٩ م

وفي منتصف ستينيات القرن العشرين، أعدت الطبعة الأولى لأعماله الكاملة، مع التقديم لها بدراسة وافية عن حياته وأفكاره. وهي الطبعة التي صدرت عن دار الكاتب العربي بالقاهرة سنة ١٩٧٠ م

ومنذ ذلك التاريخ، بدأت المراسلات وتوفقت العلاقات بيني وبين حفيد الكواكبي - وسعيه - المرحوم الأستاذ الجليل الدكتور/ عبدالرحمن الكواكبي، الذي كان مثلاً قذاً للمثقف المتواضع، والنموذج الأمثل في الوفاء لجده العظيم، يبحث ويتقرب عن آثاره الفكرية المفقودة. ويتواصل مع المهتمين بفكره وتراثه من كل البلاد وجميع المذاهب والاتجاهات والديانات

ولقد أعاننى هذا الإخلاص والدأب والتفانى - الذي ثوجته علاقة صداقة حميمة بين أسرتينا - على أن تأتى الطبعة الثانية من هذه الأعمال الكاملة - التي أصدرتها المؤسسة العربية

الدراسات والنشر ببيروت سنة ١٩٧٥م - مزيدة ومشتمة على ما لم تشمله الطبعة الأولى من هذه الأعمال.

وعبر المراسلات والعقاسلات حدثني المرحوم الدكتور/ عبد الرحمن الكواكبي عن جهود الباحث اللبناني المسيحي «جان داية» - عضو الحزب السوري القومي الاجتماعي - في السحت عن آثار الكواكبي المفقودة، خاصة أعداد الصحيفتين اللتين أصدرهما مبكراً بمدينة حلب - صحيفتي «المهباء» و«اعتدال» - ثم تم التوصل بيني وبين «جان داية» - عبر المراسلات - ووصلتني العديد من المقالات التي نشرها في الصحف عن الكواكبي.

وعندما تم العثور - في ألمانيا - على بعض أعداد الصحف التي أصدرها الكواكبي، نشر «جان داية» كتاباً عن «صحافة الكواكبي» ضمنه محتويات أعداد تلك الصحف، وصورة «زنگرافية» لصفحاتها - ولقد نشرت هذا الكتاب مؤسسة (فكر) للأبحاث والنشر ببيروت سنة ١٩٨٤م.

وخلال هذه المراسلات وعبر هذه المقالات لـ «جان داية»، وضحت الفكرة المحورية الحاضرة لباحث مسيحي سوري قومي على أن يهتم هذا الاهتمام الدؤوب بفكر الكواكبي وآثاره الفكرية. وهي فكرة السعي لإثبات علمانية الكواكبي، وريادته لفكرة فصل الدين عن الدولة، وعلمنة الإسلام في عصرنا الحديث:

كانت تلك هي «الفكرة» الدعوى التي حفزت «جان داية» - عضو الحزب السوري القومي الاجتماعي - إلى الرهبة في محراب

فكر الكواكبي، ليثبت علمانيته، التي خالف فيها وبها - كما يقول -
كل العلماء وزعماء الإصلاح في الإسلام

ومنذ اللحظات الأولى لإعلان «جان داية» عن هذه الدعوى،
حدثني عنها المرحوم الدكتور عبد الرحمن الكواكبي - بل لقد
توافق مع «جان داية» على الاحتكام إلى الفصل في هذه
الدعوى - ولقد أبدت - يومئذ - ملاحظات عامة ترفض هذا
الادعاء - ادعاء علمانية الكواكبي - وريادته الدعوة لفصل الدين
الإسلامي عن الدولة - انطلاقاً من آثاره الفكرية، التي تضعه
ضمن أعلام مدرسة الإحياء والتجديد الإسلامي الحديثة التي
دعت إلى تحفيز الدين الإسلامي لتتجدد به دماء المسلمين، والتي
أكدت على أن سبيل الإصلاح في المسلمين هو الإسلام - لأنه
السبب المفرد لسعادة الإنسان في المعاش والمعاد.

لكن «جان داية» مضى في طريقه، يجمع «الأدلة» على
علمانية الكواكبي، حتى أصدر لهذه الدعوى كتاباً خاصاً، جعل
عنوانه «الإمام الكواكبي.. فصل الدين عن الدولة»، نشرته
دار سوراقيا للنشر بالمملكة المتحدة سنة ١٩٨٨م.

فلما جاءت هذه المناسبة - مناسبة إصدار الطبعة الثالثة من
«الأعمال الكاملة للكواكبي» - كان لابد من دراسة «حيثيات»
هذه الدعوى الخطيرة - دعوى علمانية الكواكبي - لتمثل هذه
الدراسة لهذه القضية التقديم الجديد لهذه الطبعة الجديدة. المزيدة
في النصوص والوثائق.. والمنقحة في الدراسة والتقديم

لقد كنا - ومعنا كل المشتغلين بالعلم والفكر الإسلامي في عصرنا الحديث وواقعنا المعاصر - على يقين من أن أول من ادعى علمنة الإسلام هو المرحوم الشيخ علي عبدالرازق (١٣٠٥ - ١٣٨٦ هـ / ١٨٨٧ - ١٩٦٦ م) في كتابه (الإسلام وأصول الحكم) سنة ١٩٢٥ م. ولقد أثنينا في الدراسات والوثائق التي نشرناها حول هذا الكتاب تراجع الشيخ علي عبدالرازق عن هذه الدعوى (انظر في ذلك كتبنا «الإسلام والسياسة الرد على شبهات العلمانيين» و«معركة الإسلام وأصول الحكم» و«الإسلام بين التنوير والتزوير»).

لكن ها هو الباحث حار داية - عضو الحزب السوري القومي الاجتماعي - يعود بدعوى علمنة الإسلام إلى سنة ١٨٩٩ م. وليس سنة ١٩٢٥ م. وإلى عبدالرحمن الكواكبي، بدلاً من الشيخ علي عبدالرازق. وها هو يقول

«إن الكواكبي هو رائد القائلين بعبء فصل الدين عن الدولة. على سعيد الأمانة والكتاب المسلمين. فتم يبرز أي كاتب مسلم قبله قال بضرورة الفصل بين السلطتين الدينية والسياسية مما يرجح الاستنتاج بأن الكواكبي هو الذي شق هذه الطريق الطويلة الشاقة. وفي جريدة (المقطم) جاء تعبير الكواكبي عن فصل الدين عن الدولة وإيمانه به أكثر وضوحاً وقوة مما هو عليه في جريدته (الشهباء) والاعتدال - وكتابيه - (أم القرى) و«طبائع الاستبداد»^(١)

(١) حار داية [الإمام الكواكبي فصل الدين عن الدولة] ص ١٧ - ١٨ - ٢٦ طبعة المملكة المتحدة سنة ١٩٨٨ م

■ بل إن «جان داية» يطلعنا في كتابه هذا، الذي خصصه لهذه الدعوى، على حقيقة أكثر إثارة، وهي أن هذه الدعوى - علمية الكواكبي ومن ثم الإسلام - ليست مجرد اجتهد من هذا الباحث - «جان داية» - وإنما هي دعوى الحزب السوري القومي الاجتماعي وزعيمه ومنظره أنطون سعادة (١٩٠٤ - ١٩٤٩ م). فهي دعوى الحزب، الذي ينتمي إليه «جان داية» - والذي تمثل العلمنة محور «أيديولوجيته» القومية السورية - وعن هذه الحقيقة يتحدث «جان داية» في كتابه هذا باقلاً عن «الأعمال الكاملة لأنطون سعادة» فيقول:

لقد تطرق أنطون سعادة إلى جمال الدين الأفغاني (١٢٥٤ - ١٣١٤ هـ / ١٨٣٨ - ١٨٩٧ م) ومحمد عبده (١٢٦٥ - ١٣٢٣ هـ / ١٨٤٩ - ١٩٠٥ م) فانتقدتهما بشدة لأنهما قالاً بالدولة الدينية بعد أن رفضا مبدأ فصل الدين عن الدولة.

ثم قارن سعادة بينهما وبين الكواكبي - الذي دعا بالتأطيق بالأضاد إلى «الوفاق الجنسي» دون المذهب - فقال - أي - سعادة -

لا يظن أحد أن جميع مفكري المحدثين هم من نوع الشيخ محمد عبده والسيد جمال الدين الأفغاني فهذان المفكران الرجعيان غير السوريين لا يتكئهما ادعاء احتكار التفكير المحدثي العصري وقد قلنا إن مفكراً سورياً محدثاً هو السيد الفراتي عبد الرحمن الكواكبي لم يذهب حيث إماما الرجعية المذكوران. مع أنه أحق بهداية النفوس منهما إذ نظر إلى الحياة الاجتماعية والسياسية من جهة التفكير السوري المتمدن. لقد

نظر الكواكبي في مقتضيات الدين والدنيا، فقال فيها هذا القول الفصل الذي تتبناه الحركة السورية القومية بحرفيته .^{١١}

هكذا تحدث أنطون سعادة عن الكواكبي، باعتباره علمانياً بل وسورياً قومياً مثل سعادة وحزبه . ومن ثم فهو تقدمي . وليس رجعيّاً مثل محمد عبده وجمال الدين الأفغاني

•••

ولأن «جان داية» قد نذر الكثير من جهده لإثبات هذه الدعوى وجعلها أبرز مشاريعه البحثية، وكتب حولها كتابين «صحافة الكواكبي» و «الإمام الكواكبي» فصل الدين عن الدولة» فضلاً عن العديد من المقالات والمحاضرات، فلا بد من الوقوف بموضوعية وأمانة أمام «الأدلة» التي ساقها لإثبات هذه الدعوى الخطيرة والمثيرة . ولقد استقصينا هذه «الأدلة» فوجدناها سبعة . نعرضها - بالفاظ حار داية - ثم يتبع كل واحد منها بالرد والتفنيد.

■ الدليل الأول قول الكواكبي في «طوائع الاستعداد» ص ٢٠٨ من الأعمال الكاملة طبعة سنة ١٩٧٥ م - «هذه أمم أوستريا [النمسا] وأمريكا قد هداها العلم لطرائق شتى وأصول راسخة للاتحاد الوطني دون الديني، والوفاق الجنسي دون المذهبي، والارتباط السياسي دون الإداري، فما بالناس لا تفكر في أن يتبع إحدى تلك الطرائق أو شبيهها»

١١) المرجع السابق ص ٣٦ - ٣٧ . ومن ديانة سفر عن [الأدلة الكاملة لأنطون سعادة] ص ٢٨٨ - طبعة ١٩٤١ - ١٩٤٢ م

ونحن عندما نقرأ عبارات الكواكبي هذه في سياقها، نجدها موجهة إلى العرب غير المسلمين، فقبلها يقول «يا قوم، وأعني بكلمة الناطقين بالضاد من غير المسلمين». الذين تجمعهم بمواظبتهم المسلمين روابط الوطنية والقومية. والكواكبي يدعوهم إلى الاتحاد مع المسلمين على أساس هذه الروابط الجامعة. وإلى نزع فتيل الخلاف الديني. وليس في هذه العبارات ما يعنى فصل الدين الإسلامي عن الدولة الجامعة للرعية متعددة الديانات. فالمرجعية الإسلامية لهذه الدولة هي قائمون وضعى بالنسبة للنصارى، الذين تأمرهم بحراسيتهم أن يدعوا الدولة لغيرنا لأنه ليس في حراسيتهم مرجعية سياسية ولا قانونية لهذه الدولة.

والكواكبي يستطرد في هذا النص فيقول «لأعاجم والأجانب».

«دعونا يا هؤلاء ندير شأننا، نتفاهم بالفصحاء، ونتراحم بالإخاء، ونتواصى في الضراء، ونتساوى في السراء، دعونا ندير حياتنا الدنيا وجعل الأديان تحكم في الأخرى فقط، دعونا نجتمع على كلمة سواء».

وكلام الكواكبي هذا لا شبهة فيه العلمانية التي تفصل الدين عن الدولة، بل هو التطبيق لموقف الإسلام في إسلامية الدولة. حتى لكأنه يدعو إلى تطبيق دستور دولة النبوة - في المدينة المنورة - الذي نص على أن «يهود أمة مع المؤمنين لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ومن تبعنا من يهود فإن لهم النصر

والأسوة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة غير مظلومين ولا متناصر عليهم مع النصيح والنجيحة والبر دون الإثم^(١)

وتطبيق لعهد رسول الله ﷺ للنصارى بجران سنة ١٠هـ/ ٦٣١م. الذى أمّنهم فيه على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم. وكل ما يملكون. على أن لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين. وعلى المسلمين ما عليهم. حتى يكونوا للمسلمين شركاء فيما لهم وفيما عليهم^(٢)

فالدين الإسلامى - وليس العلمانية التى تنهى الدين - هو الذى يجعل رعية الدولة وأمتها وشعبها سواء فى كل حقوق المواطنة. مع جعل الحكم فى الاختلاف الدينى لله وحده يوم الدين. فالمساواة - التى يتحدث عنها الكواكبي - فى حقوق المواطنة. هى ثمرة لإسلامية الدولة. وليس لعلمانيّتها

أما إشارة الكواكبي - فى هذا النداء الموجه إلى العرب غير المسلمين - إلى «الاتحاد الوطنى دون الدينى» - فليس المراد منها استبعاد الدين الإسلامى والجامعة الإسلامية لأنه يتحدث إلى النصارى العرب. وإنما المراد دعوتهم إلى الحذر من الوقوع فى شباك «الاتحاد الدينى» مع المستعمرين النصارى. والولاء للأجانب الطامعين فى استعمار بلادهم بحجة أن جامعة القديس بال نصرانية توجد بين النصارى العرب وهؤلاء المستعمرين الغربيين

(١) مجموعة الوثائق السياسية للعهد النورى والحلافة الراشدة [ص ١٤ - ٢١ تحقيق

د محمد حمد الله العبدى أنادى طبعة القاهرة ١٩٥٦ م

(٢) المصدر السابق ص ١٢١-١٢٨

ويفسر هذا النص وهذا الموقف ملائمتا واقع ذلك التاريخ. فلقد كانت فرنسا الكاثوليكية - رغم علمانياتها المتوحشة في بلادها - تنصب نفسها حامية للكاتوليك العرب - الموارنة - وكانت روسيا القيصرية الأرثوذكسية تنصب نفسها حامية للأرثوذكس العرب - وخاصة في الشام - فأراد الكواكبي بهذا النداء الموجه إلى العرب غير المسلمين تحذيرهم من الوقوع في شباك غواية «الاتحاد الديني» بينهم وبين هؤلاء المستعمرين. ونسبهم إلى أن روابطهم اللغوية العربية والحسية - أي القومية - والوطنية التي تجمعهم مع مواطنيهم المسلمين هي الروابط الطبيعية الموحدة لهم مع أمتهم العربية. وليس الاتفاق في الدين أو المذهب مع الأحزاب المستعمرية ويؤكد هذا المعنى وهذا التفسير ما جاء في نداء الكواكبي هذا - للعرب غير المسلمين - بعد السطور التي أوردها منه والتي تقتصر عليها «جنان داية» من قوله لهؤلاء العرب النصارى صجراً من الغواية الاستعمارية باسم الاتحاد في الدين «أدعوكم وأخص منكم التحباء للتبصر والتبصير فيما إليه المصير ليس مطلق العربي أخف استحقاقاً لأخيه من الغربي» هذا الغربي قد أصبح مادياً. لا دين له غير الكسب، فما تظاهروا مع بعضنا بالإخاء الديني إلا مخادعة وكذباً! هؤلاء الفرنسيون يظاردون أهل الدين ويعملون على أنهم يتناسونه بناء عليه لا تكون دعوهم الدين في الشرق إلا كما يغرد الصياد وراء الأشباك!»

(١) [الأعمال الكاملة للكواكبي] ص ٢٠٨

فالاتحاد الدينى الذى يحذر منه الكواكبي، ليس الجامعة الإسلامية - التى كان من أبرز دعااتها - ولا المرجعية الإسلامية للدولة، وإنما هو غواية الاستعمار لتصارى العرب بدعوى الاتحاد الدينى والمذهبى بينه وبينهم.

تلك هى الحقيقة التى عقل عليها الباحث «جان دابة» وزعيمه أنطون سماعة، وحرية السوري القومى الاجتماعى - فكان هذا الافتراء على الكواكبي بأدعاء وفوقه مع فصل الدين الإسلامى عن الدولة وربادته لهذه الدعوى فى الفكر الإسلامى الحديث.

■ والدليل الثانى لـ «جان دابة» - هو قول الكواكبي عن «جمعية أم القرى»

«إنها لا تتدخل فى الشئون السياسية مطلقاً، فيما عدا ارتدادات واختطافات بمسائل أصول التعليم وتعميمه».

ولا علاقة لهذا الموقف بفصل الدين عن الدولة، وإنما هو مذهب الإمام محمد عبده ودارسته الإحيائية مذهب التركيز على «سياسة التربية» قبل «سياسة الإدارة للدولة» وإصلاح الأصول التى تجدد إسلامية الأمة كطريق لإصلاح الدولة وإسلاميتها. فالدعوة والتربية قبل السياسة - التى هى من الفروع - والأمة قبل الدولة - التى هى مستخلقة عن الأمة - وهذا هو المذهب والعنجهج الذى حددته «جمعية العلماء المسلمين فى الجزائر» و«الجمعية المحمدية» فى إندونيسيا. فهو إصلاح بالإسلام، ولكن المتميز فيه - عن الأحزاب السياسية - هو نقطة

البدء ومنطقة التركيز. وترتيب الخطوات والأولويات على طريق الإصلاح الإسلامى الشامل.

ولقد نص الكواكبي على هذه الحقيقة - حقيقة البدء بسياسة التربية وصولاً إلى الانتظام السياسى تبعاً للدين - فى «أم القرى» فقال:

«ولا يغفرك أن مطمح نظر الجمعية منحصر على النهضة الدينية فقط، وتوهم أن يأتى الانتظام السياسى تبعاً للدين».

فهو مذهب فى ترتيب أولويات الإصلاح - الإصلاح الدينى - بالقربية والدعوة وإصلاح مناهج الفكر والمؤسسات التى تصوع العقل وصولاً للإصلاح الإدارى والسياسى الذى يأتى عندئذ مؤسساً على قاعدة اجتماعية إسلامية وليس مذهباً فى فصل الدولة عن الإسلام».

■ والدليل الثالث لـ «جان داية» هو قول الكواكبي فى «طبائع الاستبداد» ص ٢٢١ من «الأعمال الكاملة».

«هل يجمع بين سلطتين أو ثلاث فى شخص واحد أم تخصص كل وظيفة من السياسة والدين والتعليم بمن يقوم بها بإتقان؟ ولا إتقان إلا بالاختصاص وفى الاختصاص كما جاء فى الحكمة القرآنية ﴿مَن جَعَلَ الذُّلَّ لِلرَّحْلِ مِنْ قَلْبِهِ فِي حَوَافِّهِ﴾ (الأحرار: ١) ولذلك لا يجوز الجمع منعاً لاستفحال السلطة».

وهذا الحديث عن التخصص - فى السياسة والعسكرية والإدارة والفقه والقضاء والتربية إلخ إلخ - هو الذى طبقته

الدولة الإسلامية حتى في عصر النبوة - رغم بساطة الدولة - وليس في التخصص ما يعنى فصل الدين عن الدولة، ولقد كان حذر الكواكبي من الاستبداد الذي يؤدي إليه الجمع بين التخصصات المختلفة في شخص واحد حتى لا تتكرر تجربة الكهانة الكنسية التي احتكرت الدين والدنيا جميعاً في «الأكثيروس». ولم يكن حذراً من المرجعية الإسلامية للدولة بحال من الأحوال، فالتخصص ضرورة حياتية وعملية والمرجعية الإسلامية مرغوبة في جميع التخصصات.

■ والدليل الرابع لـ «جان داية» هو قول الكواكبي في «ضائع الاستبداد» ص ٢٢٠ من «الأعمال الكاملة»:

«هل يكون للحكومة - ولو القضائية - سلطة وسيطرة على العقائد والضمائر أم تقتصر وظيفتها في حفظ الجامعات الكبرى كالدين والجنسية واللغة والعادات والآداب العمومية ولا تتداخل الحكومة في أمر الدين ما لم تنتهك حرمة؟ وهل السياسة الإسلامية سياسة دينية أم كان ذلك في مبدأ ظهور الإسلام كالإدارة العرفية عقب الفتح؟»

وليس في كلام الكواكبي هذا ما يعنى فصل الدين عن الدولة.

فالدين الإسلامي هو الذي يحرم ويمنع السيطرة على العقائد والضمائر، ليس فقط من قبل الدولة، بل وحتى من قبل علماء الدين. وحتى المعصوم عليه السلام لم يجعل الله له - في منطقة الضمائر

والاعتقاد القلبي - سيطرة ولا سلطانا - سوى سلطان الموعظة -
ولقد قال الله - سبحانه وتعالى - لرسوله ﷺ ﴿وَذَكَرْنَا أَنْتَ
مَذْكُورًا﴾ أنست عليهم بسيطرته [الفاتية ٢١، ٢٢]

والإمام محمد عبده - الذي يعدّه أنطون سعادة رجعيًا لأنه
لم يقل بفصل الدين عن الدولة - هو الذي يعلن رفض الإسلام
أية سيطرة بشرية على الضمان والعقائد فيقول - إن الإسلام
لم يعرف تلك السلطة الدينية التي عرفتها أوربا. فليس في
الإسلام سلطة دينية سوى سلطة الموعظة الحسنة. والدعوة إلى
الخير، والتنفير عن الشر. وهي سلطة خولها الله لكل المسلمين،
أدناهم وأعلامهم ولا يجوز لصحيح النظر أن يخلط الخليفة
عند المسلمين بما يسميه الإفرنج أتيوكرتيد أي سلطان إلهي.
فليس للخليفة - بل ولا للقاضي أو المفتي أو شيخ الإسلام -
أدنى سلطة على العقائد وتحريم الأحكام. وكل سلطة تناوبها
واحد من هؤلاء فهي سلطة مدنية قدرها الشرع الإسلامي.
فليس في الإسلام سلطة دينية بوجه من الوجود بل إن قلب
السلطة الدينية والاتباع عليها من الأساس هو أصل من أجل
أصول الإسلام^(١)

فالإسلام قد جاء ثورة على السلطة الدينية وتحريراً للضمان
والعقائد والسلطة المدنية التي قررها إنما هي بقرار الشرع،
وليست من العثمانية القائمة ضد الشرع والدين

(١) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] ج ٣ ص ٢٢٣، ٢٨٥، ٢٨٦، ٢٨٨ - دراسة
وتحقيق: د. محمد عمارة - طبعة بيروت - ١٩٧٢ م

ولقد جمع الإسلام بين التوراة على السلطان البشرى على القلوب والضمائر والعقائد وبين تحرير المرحعية الإسلامية للدولة المدنية - أى رفض علمانية الدولة - ومحمد عبده - الذى تحدث عن رفض الإسلام أى سلطان بشرى على العقائد والضمائر وتحرير الأحكام - هو الذى تحدث عن إسلامية الدولة «لأن الإسلام دين وشرع فهو قد وضع حدوداً ورسم حقوقاً، ولا تكتمل الحكمة من تشريع الأحكام إلا إذا وجدت قوة لأقامة الحدود وتنفيذ حكم القاضى بالحق وصور نظام الجماعة والإسلام لم يدع ما لقيصر لقيصر بل كان من شأنه أن يحاسب قيصر على ما له، ويأخذ على يده فى عمله فكان الإسلام كمالاً للشخص والفة فى البيت ونظاماً للملك امتازت به الأمم التى دخلت فيه عن سواها ممن لم تدخل فيه»^(١)

■ وحديث الكواكبي - هذا الذى استدل به «جان دايه» - عن أن من وظيفة الدولة - حفظ جامعة الدين - ومنع انتهاك حرمة، دليل على انحيازه لإسلامية الدولة - وليس لعلمانيتها - وشاهد على أن من وظائف الدولة - لإسلاميتها - عند الكواكبي - حراسة الدين، وحفظ الجامعة الدينية، وهى الوظيفة التى نص عليها تعريف علماء الإسلام للخلافة الإسلامية - حراسة الدين - وسياسة الدنيا بهذا الدين -

■ والدليل الخامس لـ «جان دايه» هو قول الكواكبي فى «أم القرى» يعرض نقده للدولة العثمانية

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ٢٢٥، ٢٢٦، ٢٨٧

«ولما وُضع قانون تشكيل الولايات، لم يرض المتعممون، حتى جعلوا فيه فاضى المسلمين، وكذلك مفتى المؤمنين في كل بلد، عضوين في مجلس الإدارة، بحكماً باتشياء مما يصادم الشرع، كالربا والضريبة على الخمر والرسوم العرفية وغيرها مما كان الأليق والأنسب بالإسلامية أن يبقى العلماء بعبيدين عنه، كما أن القسيس - بل الشماس - لا يحضر مجلساً يعقد فيه زواج أو تفريق مدنيان، ولا يشهد في صك دين داخله الربا، فضلاً عن أن يقضى أو يحصى بصفة رسمية كهنوتية أمثال ذلك من الأعمال التي تصادم دين النصرانية».

وقول الكواكبي هذا شاهد ضد «جان دابة»، لا شاهد معه فهو لا يعيب على علماء الدولة العثمانية الاشتراك في مجالس الإدارة والأحكام وإنما يعيب عليهم الحكم «باتشياء كثيرة مما يصادم الشرع الإسلامي» فهو موقف ضد العلمنة والعلمانية وليس معها دعوة إلى أن تكون القوانين في الدولة شرعية، لا مصادمة للشرع. وحض على عدم مخالفة العلماء ودوائر الحكم والإدارة الإسلامية بتغيير الكواكبي أي دعوة لإسلامية الدولة وإسلامية القضاء.. والإدارة.. والقانون.

■ والدليل السادس لـ «جان دابة» هو قول الكواكبي في «أم القرى»:

«لقد زعم كثير من حكماء تلك الأمم - الأوروبية - أنهم ما أخذوا في الترقى إلا بعد عزلهم سنون الدين عن سنون الحياة

وجعلهم الدين أمراً وجدائياً محضاً لا علاقة له بشئون الحياة الجارية على نوااميس الطبيعة.

والخطأ الغريب لـ «جان داية» أنه جعل «الزعم» الذي رُعمه فلاسفة العلمانية الأوربية - والذي أورده الكواكبي على سبيل الحكاية باعتباره «زُعماً» - جعله «جان داية» رأى الكواكبي في أن الدين مجرد أمر وجدائي لا علاقة له بشئون الحياة.

وهو خطأ كبير وغريب من هذا الباحث، جعل «استدلاله» هذا «زُعماً» لا علاقة له بحقيقة فكر الكواكبي حول علاقة الدين بالدولة.

■ أما الدليل السابع لـ «جان داية» وهو أهم الأدلة عنده على علمانية الكواكبي - فهو ما كتبه كاتب بتوقيع «مسلم حر الأفكار» في جريدة «المقطم» - أغسطس ١٨٩٩ م - حول الجامعة الإسلامية وفصل الدين عن الدولة، وهي مقالات ادعى «جان داية» أن كاتبها هو عبدالرحمن الكواكبي.

ويكفي لإثبات أن ما جاء في هذه المقالات هو «الدليل العمدة» لـ «جان داية» على علمانية الكواكبي. ومن ثم علمنة الإسلام، أنه قد خصص لها في كتابه: «الإمام الكواكبي» فصل الدين عن الدولة» نحو ١٠٠ صفحة، في كتاب مجموع صفحاته ١٥٨ صفحة، أي نحو ثلثي الكتاب.

ولقد وقفنا أمام هذه المقالات وقفات فاحصة ومثانية، استخدمنا فيها المنهج العلمي في نقده النصوص ونقدناها فثبت

لنا ثبوتاً يقينياً أن هذه المقالات لا علاقة لها بالكواكبي بل أن كاتبها - في أغلب الظن - ليس مسلماً. رغم توقيعها بعبارة «مسلم حر الأفكار»!

ولست أدري كيف غفل باحث جاد مثل «جان داية» عن أن يقرأ في صلب هذه المقالات العبارات التي تفصح - بأبلغ عبارة - عن أن كاتبها لا يمكن أن يكون هو المصلح الإسلامي العظيم عبدالرحمن الكواكبي!

ومن الأدلة على هذه الحقيقة التي غفل عنها «جان داية»:

١ - ما جاء في رد الشيخ محمد رشيد رضا (١٢٨٣ - ١٣٥٤ هـ - ١٨٦٥ - ١٩٣٥ م) على هذا «مسلم حر الأفكار» من التحذير من الاغترار «بكلام عارق غادر يصف نفسه بأنه «مسلم حر الأفكار» وما جاءت حريته إلا من رق الكفار» ص ١٣٨ من كتاب «جان داية».

٢ - فلما رد «مسلم حر الأفكار» على الشيخ رشيد رضا، جاء في رده - ص ١٤١ من كتاب «جان داية» - تعليقا على عبارة «وما جاءت حريته إلا من رق الكفار» التساؤل: «فمن هم الكفار الذين يعنيهم الأوروبيون الذين يعيبنى على الدرس في مدارسهم»!

فلقد كشفت هذه العبارة اعتراف هذا «مسلم حر الأفكار» بأنه واحد من المثقفين اللبنانيين الذين تعلموا ودرسوا في

مدارس الإرساليات التفصيلية. وفي هذا دليل قاطع على أنه لا يمكن أن يكون هو الكواكبي الذي درس في المدرسة الكواكبية الإسلامية بحلب.

٣ - ولقد عاد الشيخ رشيد رضا في رده على هذا الرد - ص ١٤٥ من كتاب «حان داية» - فأشار إلى حقيقة هذا الاكتشاف الذي غفل عنه - أيضاً - حان داية. وذلك عندما قال عن هذا «المسلم حر الأفكار» «إن كتابته تشيد عليه إحدى الغميرتين

- عدم فهم الإسلام.

- واعتقاد أن تركه سعادة للأنام.

وهو مع ذلك. ينفي التهمة عن نفسه بالاعتزاز بالأوربيين والتبجح بالانتماء إليهم. والأخذ بتعاليمهم وإنكار إطلاق لفظ الكفار عليهم.

ولا يمكن لقارئ - فضلاً عن باحث مثل حان داية - أن يقول إن أوصاف «الاعتزاز بالأوربيين والتبجح بالانتماء إليهم والأخذ بتعاليمهم وإنكار إطلاق لفظ الكفار عليهم» يمكن أن تجعل هذا الكاتب مسلماً. فضلاً عن أن يكون هم الشيخ عبد الرحمن الكواكبي أحد أنمة الإصلاح الإسلامي في العصر الحديث!!

٤ - تم يعود الشيخ رشيد رضا - في هذا الرد على الرد - ص ١٤٦، ١٤٧ من كتاب «حان داية» - ليعيد الحديث عن هذا الاكتشاف.

- الذي حسم القضية - اكتشاف أن الـ«مسلم حر الأفكار» هذا هو واحد من خريجي مدارس الإرساليات التبصيرية في لبنان فيقول الشيخ رشيد - إنني ما عبته على الدرس في مدارس الأوربيين - ثم يختم الرد موجهاً إليه القول - فالزم شأنك - مكتفياً بعلومك الأوربية، والسلام على من اتبع الهدى»!

فكاتب مقالات «المقطم» - الداعية إلى فصل الدين عن الدولة - هو خريج إحدى مدارس الإرساليات التبصيرية في لبنان - وليس الشيخ عبدالرحمن الكواكبي.

والشاهد الصادق على هذه الحقيقة هو تصوص المقالات التي نشرتها «المقطم» والتي غفل الباحث «جاني داية» عن الوقوف أمامها!!

ولست أدري كيف حدث منه ذلك!! اللهم إلا أن تكون شهوة الانتصار لدعوى زعيمه ومثله الأعلى «أنطون سعادة» غلبة الكواكبي هي التي غلبت على ملكة الباحث المدقق فيه!

وقديما قالوا إن الحب يعمى ويصم.. فنعمون بالله من حب كهذا. خاصة في القضايا الخلافية الشائكة. مثل دعوى علمانية هذا العلم البارز من أعلام الإصلاح الإسلامي في العصر الحديث.

• ثم إن الذين كتبوا - في (المقطم) - داعين إلى فصل الدين عن الدولة - فيبل نشر مقالات هذا الـ«مسلم حر الأفكار» - كانوا

جميعاً كتاباً مسيحيين، حفا الطرايلسي - «المقطم في ١٢،
 ١٧، أغسطس سنة ١٨٩٩ م - وميستيل حكيم - المقطم في ١٥
 أغسطس ١٨٩٩ م» - ولم يكتب كاتب مسلم واحد - باسمه
 الصريح - حول هذا الموضوع في ذلك التاريخ - ولم يعرف في
 ساحة الفكر الإسلامي من الكتاب المسلمين من كان يتبنى
 هذا الاتحاد - فصل الدين عن الدولة - في تلك المرحلة من
 تاريخ فكرنا الإسلامي

فهو كان هذا «مسلم حر الأفكار» كاتباً مسيحياً تخفى تحت
 هذا الوصف الكاذب المستعار؟

إن مقال هذا «مسلم حر الأفكار» في «المقطم» - ٣ أغسطس
 سنة ١٨٩٩ م - يشي بأنه كاتب مسيحي، وليس مسلماً فهو
 يتحدث عن «الدعوات الدينية السكونية» - كتاب «جان داية»
 ص ١٢٠ - وتعبير «السكونية» هذا تعبير مسيحي ومصطلح
 كنسي لا يستخدمه المفكرون المسلمون

٦ - ثم إن هذا الكاتب يتهم دعاة الجامعة الإسلامية - التي كان
 الكواكبي من أعلامها - بالتهم التي اجتهد الكواكبي كثيراً في
 دفعها عن الإسلام والمسلمين - يتهم هذا «المسلم حر
 الأفكار» دعاة الجامعة الإسلامية بأنهم يرون - أن الخطر
 لا يزول عن الإسلام إلا بتفريق شمل النصاري، وإن عز الإسلام
 لا يكون إلا بسد النصاري - كتاب «جان داية» [الإمام
 الكواكبي - فصل الدين عن الدولة] ص ١٢١ - وهذه دعاوى

واتهامات لا يقول بها إلا المسيحيون الذين تعلموا التعصب
ضد الإسلام والمسلمين في مدارس الإرساليات التبصيرية
التي اعترف هذا الـ «مسلم حر الأفكار» بأنه قد تربي وتعلم
فيها. ولا يمكن لعاقل أن يتصور صدور هذه الاتهامات
للمسلمين - «تمزيق شمل النصاري» و«لذ النصاري» - من
المصلح الإسلامي السيد عبدالرحمن الكواكبي

الإسلام والعلمانية

وأذا كانت دعوى «علمانية الكواكبي» قد سقطت، أدلتها السبعة، هذا السقوط المدوي، - على هذا النحو الذي أوردناه - فجدد بالذكر أن الشيخ محمد رشيد رضا قد انتهز فرصة الرد على هذا الـ «مسلم حر الأفكار» لينفي عن علماء الإسلام القول بالعلمنة. ول يؤكد أن هذه الدعوى قد وقعت - حتى ذلك التاريخ عند الكتاب المصناري - الذين أرادوا إزاحة الإسلام عن أن يكون المرجعية للدولة التي يعيشون فيها. ولما لم يكن لديهم بديل نصراني للدولة والإدارة والسياسة والقانون والاحتشاع - ولأنهم أقلية بين الرعية التي تدبر أغلبيتها بالإسلام - فلقد أرادوا إزاحة الإسلام بالعلمانية الغربية، التي تعلموها في مدارس إرساليات التبصير، والتي تخرجوا منها «حيثما متغافيا في خدمة فرنسا وحضارتها» على حد تعبير أحد القناصل الفرنسيين ببيروت في ذلك التاريخ.

انتهر الشيخ رشيد رضا تلك الفرصة، ليؤكد على هذه الحقيقة.. وعلى أن العلمانية لا يمكن أن تكون مقبولة في إطار الإسلام والمسلمين فقال:

«إن «الأهرام» و«المقطم» متغفنان على أن الدعوة إلى الجامعة الإسلامية باسم الدين مضرة، وغير موصلة إلى الغاية، وأنه لا سبيل إلى ترفي الأمة الإسلامية إلا باتساع خطوات أوربا، كما فعلت اليابان».

و«المؤيد» رد عليهما قولهما الأول - ولم يبد رأياً جديداً، إلا أنه وافق على أن مسلك الكتاب المسلمين في الدعوة الدينية مقيد، كما أن الأخذ بالفنون والصنائع الأوروبية مفيد مع ذلك.

ولكن، قد ظهر في «المقطم» قول جديد في مقالة تسببت إلى «مسلم حر الأفكار» لم يتابع به قائله مسلماً ولن يتابعه عليه مسلم. لأنه ناسف لبناء الدين الإسلامي، ومقوض لعمود بنيانه وهو زعم أن الدين والدولة أمران متباينان يجب أن ينفصل أحدهما عن الآخر ولقد وجد للإسلام أعداء احتهدوا في كل عصر بمحوه، أو إضعافه، منهم من حاول إفساد العقائد بالتأويل، ومنهم من وضع الأحاديث الكاذبة، ومنهم من سهل للملوك طريق الاستبداد، ومنهم ومنهم، ولكن مجموع مفاسدهم ومضراتهم لن تبلغ بعض ما يرمى إليه هذا القول الخبيث الذي لم يخطر في بال إبليس فهو أبلغ قول بشير إلى أحكم رأى لمحو السلطة الإسلامية من لوح الوجود قائل الله قائله، ولا أكثر فيمن يدعون الإسلام من أمثاله - [كتاب جان دابة الإمام الكواكبي فصل الدين عن الدولة] ص ١٣١، ١٣٢.

هكذا أعلن الشيخ رشيد رضا أن الدعوة إلى فصل الدين عن الدولة قد تفوقت على كل دعاوى المفسدين للإسلام من الأعداء عبر التاريخ - وأنها قد تفوقت على أحلام إبليس.

ثم مضى الشيخ رشيد ليؤكد على رفض الإسلام - بحكم طبيعته كملهاج شامل - للعلمانية فقال «لقد عرف علماء المسلمين الدين بأنه وضع إلهي سابق لدوى العقول باختياراتهم

إلى الصلاح في الحال والفلاح في المآل وإن شئت قلت: إلى
سعادتهم الدنيوية والأخروية».

وقواعده عندهم ثلاث.

١ - تصحيح العقائد

٢ - تهذيب الأخلاق

٣ - إحصان الأعمال

والأعمال قسمان: عبادات، ومعاملات. ومن الثاني الأحكام
بأنواعها - قضائية ومدنية وسياسية وحربية

أما الدين عند النصارى، فهو - كما في دائرة المعارف -
«عبارة عن مجموع المواعظ الصائبة لنسبة الإنسان إلى الله
أو بعبارة صفات تلك النسبة» وهو - كما ترى - لا علاقة له
بالأمور الدنيوية ولا بالأحكام والسلطة. ومن المدهون أن الديانة
النصرانية مبنية على الخضوع لأية سلطة حكمت أصحابها لما
في الإنجيل من أن سلطة الملوك إنما هي على الأجسام الفانية.
وأن سلطة الدين على الأرواح فقط. فيجب على كل متبع لهذا
الدين أن يدين لكل سلطة ويذعن لكل شريعة حكمته. بخلاف
الدين الإسلامي فإنه مبني على السلطة والغلب

إن الدين الإسلامي جامع لمصالح الصالح والمعاد ومبني
على أساس السلطتين الزمنية والروحية. وإن الديانة النصرانية
على خلاف ذلك. وإن الخليفة هو رئيس المسلمين القائم على
مصالحهم الدنيوية والدنيوية. وإن كل حكومة تخرج عن طاعته

الشرعية فهي منحرفة عن صراط الإسلام، وإن القول بفصل الحكومة والدولة عن الدين هو قول بوجوب محو السلطة الإسلامية من الكون ونسخ الشريعة الإسلامية من الوجود، وخضوع المسلمين إلى من ليس على صراط دينهم ممن يسمونهم فاسقين وظالمين وكافرين فإن القرآن العزيز الذي هو أساس الدين يفرع دائماً إناهم بل يناديهم من أعماق قلوبهم قائلاً بلسان عربي مبين ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة ٤٤] ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة ٤٥] و﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة ٤٦]

ونحن نقول للذين يدعوننا إلى فصل الدين عن الدولة والتفريق بين السلطة والخلافة لأجل تأييد الجامعة الإسلامية إن كنتم تدعوننا هذه الدعوة جاهلين معنى هذه الألفاظ عندنا فلها نحن أولاء قد بيناها لكم فارجعوا عن دعوتكم، فقد علمتم أن قياس الإسلام على النصرانية قياس مع الفارق فإن فصل السلطة الروحية عن السلطة الزمنية هو أصل النصرانية. وقد كان رؤساء الدين تعدوا الحدود وتسلقوا عروش السلاطين والملوك مخالفين صاحب الدين الذي

قد جاء لا سيف ولا رمح ولا

فرس ولا شيء يباع بدمهم

بأوى المغارة مثل راعى الضأن را

على الممالك فى السرير الأعظم

فلا بدع إذا ترقى الدين بانصراف رؤسائه الى خدمته وتركهم الاستغفال بما ليس منه فى شيء. ونحن والنصارى فى هذا الأمر على طرفى نقيض. فإنا إذا تلونا تلوهم فيه نكون قد تركنا نصف ديننا الذى هو السباح الحافظ للنصف الباقي

كلا إن الدين كله يكون بهذا العمل عرضة للاضمحلال ومهددا بالزوال. لا حرج أن ما تدعوننا اليه هو أقرب طريق لإعدام الجامعة الإسلامية فكيف جعلتموه طريق إبجادها وهو أقوى علل شقاقها. فأنى تقنعوننا بأنه علة إسعادها.

وبعد أن فصل الشيخ رشيد رضا هذا الفصل الحاسم فى القضية. فميز بين الإسلام والنصرانية فى الموقف من السياسة والعلاقة بالدولة. فهما فى ذلك على طرفى نقيض. ومن ثم فإن العلمانية إذا كانت طبيعية فى المجتمعات النصرانية فإنها الهادمة لجماع الدين فى المجتمعات الإسلامية.

بعد هذا الفصل. عباه الشيخ رشيد إلى هذا الداء مسلم حر الأفكار. الداعى إلى فصل الدين عن الدولة فشكك فى صدق انتسابه إلى الإسلام. وقال

«علينا ألا نغتر بكلام مارق وغادر. يصف نفسه بأنه مسلم حر الأفكار. وما جاءت حريته إلا من رق الكفار فإن كان اتخذ لقب المسلم دربعة لهدم منار الشريعة فكأين من منتسب مثله

للإسلام ينزهك حرمانه بالفعل لا بالكلام، ويساعد الأجانب على
نقض أساسه، وإطفاء نبراسه، متبجحاً بأنه من الأحرار
المتدنين، البراء من لوثة التعصب للدين

ربما كان الجامل لبعض الكتاب المسيحيين على اقتراح ما
ذكر هو اعتقادهم بأن زوال السلطة الشرعية الإسلامية هو الذي
يساوى بين طائفتهم وبين المسلمين، ويخطئ تيران الغلو في
التعصب، فيتفقون على إعلاء شأن الوطن، ويخدم كل دينه من
الوجهة الروحية التي لا مشار فيها للتنازع والتفاخر، ويسهل
عليها أن يبين لهم خطأهم في اعتقادهم هذا فنقول

١- إن بناء الشريعة الإسلامية قام على قاعدة العدالة والمساواة
بين المسلمين وغيرهم في الأحكام والحقوق المعبر عنها
بهذه الجملة التي يتناقلها الإسلام خلفاً عن سلف، وهي
«لهم ما لنا وعليهم ما علينا» وقد دلنا التاريخ على أن
الحكومات الإسلامية كانت تراعى هذه القاعدة بحسب
تمسكها بالدين قوة وضعفاً ومن قابل بين مساواة أمير
المؤمنين عمر بن الخطاب الإمام علياً صير النبي وربيته
وابن عمه برجل من آحاد اليهود في المحاكمة، وانتقاء علي
عليه بقوله له «يا أبا الحسن» وعنه التكنية إخلالاً بالمساواة؛
لما فيها من التعظيم وبين ما هو جار اليوم في فرنسا من
التحامل على «دريغوس» وهو من أكابر عظماء اليهود، حتى
إنهم حاولوا قتل وكيله الذي يحامي عنه، وهم أصحاب العلم
الذي ينطق بالحرية والعدالة والمساواة، يظهر له الفرق بين

المسلمين في بدايتهم والأوربيين في نهاية مدنيّتهم،
فالشريعة في نفسها عادلة، ولا يضر المسيحيين أن
مواطنيهم المسلمين يعتقدون أنها سماوية. بل هو ينفعهم
وهم لا فرق عندهم بين الشرائع إن دينهم يوجب عليهم
اتباع أية شريعة حكموا بها.

٢- إن الترقى الدينى والمدنى الذى تقصده من إحياء «الجامعة
الإسلامية» يتوقف على التهذيب وقيام الأفراد بما عليهم من
الحقوق والواجبات لمن يعيشون معهم. وهذا القول لا يخالف
قيمة أحد.

ومعلوم أن المسلمين لا يعتقدون بحق ولا واجب إلا إذا كان
مُبينًا في شريعتهم وأخذًا من أصول دينهم، فإذا فصل بين
الدين والدولة كان جميع ما تكلفهم به الدولة من الحقوق
والواجبات غير واجب الاتباع في اعتقادهم، فإذا أخذوا به في
العلاية لا يأخذون به في السرّ، ولا يتم تهذيب الأمة ما لم يكن
الوازع لها عن الشر والحامل لها على الخير ثابتًا في نفسها مقررًا
في اعتقادها، فخير للمسيحيين أن يحكم المسلمون بشريعة
ودولة توجب عليهم احترامهم والقيام بحقوقهم سرًا وجهزًا،
ويدون هذا يتضرر المسيحيون ولا يرتقى المسلمون بل يتدلون
ويهبطون. كما علم بالاختبار والمجاهدة، فقد أنبأ التاريخ أن
مبدأ الخلل والضعف الذى ألم بنا كان من إهمال وظائف الخلافة
والخروج بها عن معناها الذى هو حراسة الدين وسياسة الدنيا
ولن يعود للإسلام محده إلا بإحياء منصب الخلافة واتفاق

المسلمين على إمام واحد يعتقدون وجوب الخضوع له سرّاً
وجهرًا، ولا إمام اليوم للمسلمين بهذا المعنى إلا القرآن الكريم،
فيجب على من يهمة ترقية شأنهم أن يدعوهم به إلى العلم
والعمل، ونقص عمار الجهل والكسل، والقيام بمصالح المعاش
والمعاد. على ما تقتضيه سنة الترقى والإسعاد. فهو إمام كل
إمام، وكما كان المبدأ في ترفيهم كذلك يكون الختام»

هكذا سقطت جميع «الأدلة» التي حاول بها جاني دابة -
وجريه السوري القومي - علمية الكواكبي. وهكذا رأينا كيف
كانت مقالات «المقطم» فرصة لكشف الشيخ رشيد رضا ريف
انساب صاحبها إلى الإسلام. فضلاً عن أن يكون هو المصلح
الإسلامي العظيم الشيخ عبدالرحمن الكواكبي

(١٦) اختار دابة [الإمام الكواكبي مصدر التبرير عن الدولة] ص ١٣٩، ١٣٦، ١٣٥، ١٣٩ - ١٣٩ -
وهو ينقل عن [المصدر]، انظر في [المصدر] رشيد رضا «تحرير الكلمة عن مواضعه
رد على مسلم خير الأفكار - السنة الثامنة» برقم ٣٤ ص ٢٨٤ - ٣٩١ - ٢٦ ربيع
الثاني سنة ١٢١٧ هـ - ٢ سبتمبر سنة ١٨٩٩ م

الكواكبي والفصل بين السلطتين

لكن إذا كانت دعوى الحزب السوري القومي الاجتماعي - وبما حان راية - علمنة الكواكبي، قد سقطت وذهبت إلى غير رجعة بعد أن انهارت - في هذه الدراسة - «أدلتها» السبعة، فما هي حقيقة - الخلاف بين الشيخ محمد رشيد رضا وبين الكواكبي حول علاقة السلطة الدينية بالسلطة السياسية؟ - وهو الخلاف الذي أشار إليه الشيخ رشيد في رثائه للكواكبي بسحلة «المسار» - فقال: «وقد كنا معه على وفاق في أكثر مسائل الإصلاح، حتى إن صاحب الدولة مختار باشا العارفي (١٨٣٢ - ١٨٩٩م) اتهمنا بتأليف الكتاب «أم القرى» - عندما أطلع عليه - وربما يشير إلى المسائل التي خالفنا الفقيد «الكواكبي» فيها - في هامش الكتاب عند طبعه - وأهمها الفصل بين السلطتين الدينية والسياسية».

فما هو هذا الفصل الذي قال به الكواكبي بين السلطتين الدينية والسياسية؟ وهل هو العلمانية التي تفصل الدين عن الدولة؟

■ لقد كان الكواكبي ناقدًا نقدًا شديداً - بل وحاداً - للأتراك العثمانيين. وكان منحازاً الانحياز كله إلى العرب فهم - عنده - «أقدم الأمم اتباعاً لأصول نساوي الحقوق وتقارب المراتب في الهيئة الاجتماعية وأعرف الأمم في أصول الشورى في الشؤون العمومية وأهدى الأمم لأصول المعيشة الاشتراكية ومن

(١١) [المسار] المجلد الخامس - الجزء السابع ص ٢٧٩ - عند ربيع الثاني سنة ١٣٢٠ هـ.

- ١٩٠٣ م.

أحرص الأمم على احترام العهود عزةً. واحترام الذمة إنسانية. واحترام الجوار شهامة. وبذل المعروف مروءة. وأنسب الأقوام لأن يكونوا مرجعاً في الدين وقدوة للمسلمين. حيث كان بقية الأقوام قد اتبعوا هديهم ابتداءً. فلا يأنفون عن اتباعهم أخيراً. ولذلك قررت «جمعية أم القرى» أن تعتبر العرب هم الوسيلة الوحيدة لجمع الكلمة الدينية. بل الكلمة الشرقية.

■ وكان الكواكبي - كذلك - حريصاً على بقاء السلطنة العثمانية دولة حامية لكثير من بقاء العالم الإسلامي. كما كان داعية إلى تحديثها وتقويتها وإصلاح أحوالها لتواجه مطامع الغرب الاستعماري في ولاياتها.

■ وتوفيقياً بين موقفه الناقد للأتراك وبين استحيازه الشديد للعرب جاء في ملحق مذكرات «جمعية أم القرى» الاقتراح التنظيمي الذي يبقى على الدولة العثمانية دولة إسلامية المرجعية والفقه والقانون. ويفصل الخلافة - في ذات الوقت - عن الأتراك، ويعيدها إلى العرب - في مكة - سلطة سياسية على الحجاز. وسلطة روحية على سائر المسلمين.

ولقد جاء في هذا «الملحق» عن هذا الاقتراح التنظيمي الذي صاغه - في الحقيقة - أحد الأمراء الذين أطلعوا على فكرة الكواكبي - ولم يصغ الكواكبي نفسه - جاء فيه اقتراح

1- إقامة خليفة عربي قرشي مستجمع للشرائط في مكة

(١) [الأعمال الكاملة] ص ٣٥٧، ٣٥٨ طبعة سنة ١٩٧٥م

٢- يكون حكم الخليفة، سياسيًا، مقصورًا على الخطّة الحجازية.
ومربوطًا بشورى خاصة حجازية.

٣- الخليفة يتبّع عنه من يرأس هيئة شورى عامة إسلامية

٤- تتشكل هيئة الشورى العامة من نحو مائة عضو منتخبين.

مفدويين من قبل جميع السلطنات والإمارات الإسلامية، وتكون

وظائفها منحصرة في سنور السياسة العامة الدينية فقط

٥- تجتمع الشورى العامة مدة شهرين في كل سنة قبل موسم

الحج

٦- ٧- ٨-

٩- ترتبطبيعة الخليفة بشروط مخصوصة فلائحة للشرع.

وبناء على أنه إذا تعدى شرطًا منها ترتفع بيعته، وفي كل

ثلاث سنين يعاد تجديد البيعة

١٠- انتخاب الخليفة يكون غفوضًا بهيئة الشورى العامة

١١- ١٢- ١٣- ١٤- ١٥- ١٦- ١٧-

١٨-

أما وظائف الشورى العامة فيقتضى ألا تخرج عن تمحيص

أمهات المسائل الدينية التي لها تعلق مهم في سياسة الأمة.

ونأثير قوى في أخلاقها ونشاطها وذلك مثل فتح باب النظر

والاجتهاد تمحيصًا للشرعة. ونيسيرًا للدين الخ - الخ

ويمثل هذا الترتيب نحل مشكلة الخلافة، ويتسبّل عقد اتحاد

إسلامي تضامني تعاوني فيترك الترك الخلافة لأهلها -

[العرب] ويحتفظون ببقية سلطنتهم، ويكتفون بشرف خدمة نفس الحرمين. وبذلك يتم تجديد عز الإسلام...»^١

هذا هو الاقتراح التنظيمي الذي جاء في ملحق «مذكرات» جمعية أم القرى - وهو في الأساس من إنشاء أحد الأمراء والكواكبي في تنبيهه تأكيد على ضرورة إعادة الخلافة إلى العرب - خلافة إسلامية شرعية - وبقاء الدولة العثمانية سلطنة كما هي، لإقامة الجامعة الإسلامية - «عقد اتحاد إسلامي تضامني تعاوني» و « تجديد عز الإسلام».

ولقد كانت هذه هي نقطة الخلاف بين الشيخ رشيد رضا وبين الكواكبي فصل الخلافة الإسلامية - العربية - عن السلطنة العثمانية، ولا علاقة لنقطة الخلاف هذه بالعلمانية، وفصل الدين عن الدولة - التي أدعاهها الباحث «جبار راية» وأسطور سعادة والحرب السوري القومي الاجتماعي - فهدف الكواكبي من وراء هذا التنظيم

١ - إحياء الخلافة الإسلامية - التي طوى العثمانيون صفحاتها وإعادتها إلى العرب.

٢ - إقامة الجامعة الإسلامية معقد اتحاد إسلامي تضامني تعاوني بين الدول والسلطنات الإسلامية

٣ - تجديد عز الإسلام.

فأين هي العلمانية - يا ترى - في هذه الأهداف؟

(١) المصدر السابق ص ٣٦٤ - ٣٦٧

الرفض الكواكبي للعثمانية

وإذا كان لابد - في ختام هذه الدراسة - من إبراز بعض «النصوص الكواكبية» التي تشهد على انحياز الرجل إلى إسلامية الدولة - ومن ثم تنفي عنه أية شبهة من شبهات العثمانية - فيكفي أن نعلم:

١ - أن كتاب الكواكبي «أم القرى» موضوع كله لغرض «النهضة الإسلامية» إنه هو عبارة عن «مبطل مفاوضات ومقررات مؤتمر النهضة الإسلامية» والجمعية التي أقامها هذا المؤتمر كان مقصدها إنهاء الأمة الإسلامية - وليس فقط العربية - جمعية - إذا نادى مؤدنها - حتى على الفلاح - في راس الرجاء - يبلغ أقصى الصبر صداد» [الأعمال الكاملة ص ٢٤٣].

ومن شروط عضوية «جمعية تعليم الموحدين» التي أقامها مؤتمر «أم القرى» لإنهاء الأمة - الشرط الثاني - بعد سلامة الحواس - الإسلامية، من أي مذهب كان من مذاهب أهل القبلة - والشرط الثالث هو - العزلة - بحيث يكون العضو غير مجاهر بمعصية شرعية اجتماعية» [الأعمال الكاملة ص ٣٣٧]

كما أن لهذه الجمعية - التي مركزها مكة - فروعاً وشعباً تغطي العالم الإسلامي، «القسطنطينية» و«مصر» و«كلكتة».

و«دلهي» و«سنغافورة» و«تونس» و«مراكش» وغيرها من
المواقع المناسبة [الأعمال الكاملة ص ٣٣٩]

كما تخصص الجمعية لمنشوراتها وإعلاماتها أربع جرائد من
أشهر الجرائد الإسلامية السياسية:

١ - عربية في مصر .

٢ - تركية في القسطنطينية .

٣ - فارسية في طهران .

٤ - أوردية في كلكتة . [الأعمال الكاملة ص ٣٤٨]

كما أن الجمعية - في ختام اجتماعاتها - تسأل الله تعالى
أن يوفق ملوك المسلمين وأمراءهم للتعصب في الدين، وللحزم
والعزم عساهم يحفظون عزهم وسلطانهم إلى أن يرت الله الأرض
ومن عليها [الأعمال الكاملة ص ٣٥٨]

فأين من ذلك هذه العلمانية التي يزعمون»

٢ - إن الكواكبي - في العديد من صفحات آثاره الفكرية - يتحدث
عن المنهج الإسلامي في الإصلاح وعن نظام الحكم -
ويسميه «الإسلامية» ويقول - إن هذه الإسلامية هي التي
قدمت الحل لبعضلة الاستبداد العالي وذلك عندما أحدث
الإسلام سنة الاشتراك على أتم نظام . وعندما أسست
الإسلامية حكومة أرستقراطية المبنى . ديمقراطية الإدارة
فوضعت للبشر قانوناً مؤسساً على قاعدة أن المال هو قيمة

الأعمال. ولا يجتمع في يد الأغنياء إلا بأنواع من الغلبة والخذاع. وعندما قررت - هذه الإسلامية - أن تكون الأراضي والأملاك الثابتة وآلاف المعامل الصناعية الكبيرة مشتركة الشيوع بين عامة الأمة. وأن الأعمال والثمرات تكون موزعة بوجود متقاربة بين الجميع وأن الحكومة تضع قوانين لكافة الشئون حتى الجزئيات، وتقوم بتنفيذها وهذه الأصول، مع بعض التعديل، قررتها الإسلامية ديناً وقررت الإسلامية ترك الأراضي الزراعية ملكاً لعامة الأمة. يستلبيتها ويستمتع بخيراتها العاملون فيها بأنفسهم فقط. كما جاءت الإسلامية بقواعد شرعية كلية تصلح للإحاطة بأحكام كافة الشئون حتى الجزئية الشخصية. وأنشأت تنفيذها بالحكومة. [الأعمال الكاملة ص ١٧١، ١٧٢]

فهو - كمصلح إسلامي - يلتزم أصول الإصلاح وفلسفاته وقوانينه من الإسلامية. ومن التجارب التاريخية لتطبيقات الإسلامية في الاجتماع الإسلامي.

وفي موطن آخر من مواطن حديث الكواكبي عن نماذج الإصلاح، يتحدث عن الإسلامية، التي أقامت - حكومة قضت بالتساوي بين الحاكمين وبين فقراء الأمة في نعيم الحياة وشغلها. فأحدثوا في المسلحين عواطف أخوة وروابط هيئة اجتماعية اشتراكية لا تكاد توجد بين أشقاء يعيشون بإعالة أب واحد وفي حضانة أم واحدة. وهذا هو الطراز السامي النبوي

الذي تناقصر عبر التاريخ والذي يجب أن تستعوضه الأمة بطراز سياسي شوري - [الأعمال الكاملة ص ١٤٤، ١٤٥]

فالمثال الإسلامي هو الحاضر - دائماً - في فكر الكواكبي. عندما يبحث عن نموذج الإصلاح الذي يسعى إليه

٣ - وفي محاربة الاستبداد، يلفت الكواكبي الأنظار إلى المصدر الفرأسي «فهذا القرآن الكريم مشحون بتعاليم إمامة الاستبداد وإحياء العدل والنساقى. حتى فى القصص منه ،

وبعد إيراد العديد من الآيات القرآنية الشاهدة على هذه الحقيقة، يعقب قائلاً : «وبناء على ما تقدم، لا مجال لرمى الإسلامى بتأبىء الاستبداد، مع تأسيسها على مئات من أمثال هذه الآيات البينات فالإسلامية مؤسسة على أصول الحرية برفعها كل سيطرة وتحكم، وبأمرها بالعدل والمساواة والقسط والإخاء، وبحضها على الإحسان والنحاب» [الأعمال الكاملة ص ١٤٥، ١٤٧]

٤ - وإذا كان الكواكبي مسلماً سلفياً، أى يدعو إلى العودة - فى الدين ونموذج الإصلاح الإسلامى ومرجعيته - إلى المصابع الجوهرية النقية الأولى والأصلية للإسلام، فيقول: «يجب أن نترك جانباً اختلاف المذاهب التى نحن متبوعها تقليداً وأن نعنمد ما نعلم من صريح الكتاب، وصحيح السنة، وثابت الإجماع، وذلك لكيلا نتفرق فى الآراء وليكون ما نقرر

مقبولا عند جميع أهل القبلة إذ إن مذهب السلف هو الأصل الذي لا يرد. ولا تستنكف الأمة أن ترجع إليه. وتجتمع عليه في بعض أمهات المذاهب. وأن يجتمع على ما نفهمه من النصوص. أو ما يتحقق عندنا حسب طاقتنا أنه جرى عليه السلف. وبذلك تتحد وجهتنا. [الأعمال الكاملة ص ٢٤١]

كما أن الجمعية، التي كونها مؤتمرا «أم القرى» - جمعية تعليم الموحدين - قد نصت لانتحتها - في الفصل الثاني - المادة ١٦ على أن «توفق الجمعية مسلكها الديني على المنسوب السلفي المعتدل» [الأعمال الكاملة ص ٢٤١]

إذا كان هذا هو الكواكبي المسلم السلفي فكيف يكون علمانياً؟

٥ - وإذا كان العلمانيون - وأشبهاهم - قد نظروا بإعجاب وإيجابية إلى «القطبيات العثمانية» التي اتجهت معها الدولة العثمانية غرباً - منذ أواخر ثلاثينيات القرن التاسع عشر - عندما أخذت في استعارة النموذج الغربي وتقليده. فإن الكواكبي كان على العكس من موقف هؤلاء العلمانيين. فلقد رأى في هذا التوجه فقداناً للأصالة الإسلامية التي نشأت عليها الدولة العثمانية. مع العجز عن التقليد للغرب. أو الإبداع لما هو حديث. ولقد جعل الكواكبي هذا السبب - التحريب - «أول أصول موارد الخلل في السياسة والإدارة الجاريتين في المملكة العثمانية» التي هي أعظم دولة يهد

شأنها عامة المسلمين. وقد جاء أكثر هذا الخلل في السنين
سنة الأخيرة. أي بعد أن اندفعت لتنظيم أمورها فعطلت
أصولها القديمة. ولم تحسن التقليد والإبداع

ولذلك كانت الحالة في الدولة قبل التنظيمات الخيرية - خيرا
منها بعدها - [الأعمال الكاملة ص ٣٢٠، ٣٢١]

كما ذكر الكواكبي أن من أسباب الخلل في الدولة العثمانية
«تضييع حرمة الشرع بتعطيل أحكامه» [الأعمال الكاملة ص
٣٢٢]

كذلك كان الكواكبي عدوا للإعجاب بالأجانب وتقليدهم - الأمر
الذي يباعد بينه وبين العثمانية، التي هي تقليد للمودج الأجنبي
الغربي في علاقة الدين بالدولة - فهو القائل - دفاعا عن تمييز
الهوية العربية الإسلامية - إن من أفتح آثار الخور الاندفاع لتقليد
الأحساب واتباعهم فيما يظنون رفعة وطلاقة وتمدنا كاستحسان
ترك التعصب في الدين والافتخار به والاستحياء من الصلاة في
غير الخلوات، وإهمال التمسك بالعادات القومية والقعود عن
الناصر والتواضع كي لا يتسم من ذلك رائحة التعصب الديني. وإن
كان على الحق» [الأعمال الكاملة ص ٣٣٠]

وهو الداعي شباب الأمة الإسلامية إلى أن يفخروا بدينهم
فيحرصوا على القيام بمبادئه الأساسية. وأن يحيوا حياة قوم
كل فرد منهم سلطان مستقل في شئونه لا يحكمه غير الدين»

كما بهاجم « الناشئة المتفرونجة: لأنهم لا خلاق لهم يتكاسلون عن الصلاة التي هي عماد الدين مع أن الطهارة والوضوء هما - بمنطقهم ولسانهم - عين « التوالت » أو بعضه.. وأفعال الصلاة هي عين « الجمستيك » وأكمل منه مع أن الصلاة والصوم لو لم يكن فيهما غير أنهما شعائر يعرف بهما المسلم أخاه لكفى. ولذلك كان من حكمة الشرع حظره ترك سنة الأسلاف وتقليد الأعيار ولو في النباس » [الأعمال الكاملة ص ٢٣٠. ٢٣١]

٦ - وإن كان الذهاب لاستقصاء نصوص الكواكبي، التي تحلل من الإسلامية النموذج والفلسفة للإصلاح، قد يستدعي ملء الصفحات العديدة بهذه النصوص، الأمر الذي يخرج بهذه الدراسة عن إطارها. فإن الكواكبي قد ذهب - قوف ذلك - إلى نقد الحكماء الغربيين الذين استبعدوا الدين من مناهج الإصلاح والترقى والنهوض. ورأى أن هذا التوجه الغربي - العلماني - إنما مرجعه طبيعة الدين النصراني المخالفة لطبيعة الإسلام. فإذا كان هناك عذر لهؤلاء الحكماء الغربيين في التوجه إلى العلمانية، فإن النصرانية هي السبب. ومن ثم فلا عذر ولا مبرر لاختيار العلمانية - التي تستبعد الدين من المرجعية الإصلاحية - في خلال الإسلام.

لقد طرق الكواكبي أبواب هذه القضية، فقطع الطريق على أية محاولة لاتهامه بالعلمانية. وذلك عندما قال عن سبل الإصلاح

«لقد سلك الأنبياء عليهم السلام في إنقاذ الأمم من فساد الأخلاق مسلك الابتداء أولاً بفك العقول من تعظيم غير الله والإذعان لسواه، وذلك بتقوية حس الإيمان المفطور عليه وجدان كل إنسان، ثم جهدوا في توير العقول بمبادئ الحكمة، وتعريف الإنسان كيف يسلك إرادته، أي حريته في أفكاره، واختياره في أفعاله، وبذلك هدموا حصون الاستبداد وسدوا منبع الفساد»

ثم بعد إطلاق زمام العقول، صاروا ينظرون إلى الإنسان بأنه مكلف بقانون الإنسانيّة ومطالب بحسن الأخلاق، فيعلمونه ذلك بأساليب التعليم المفتح وبث التربية التهذيبية

والحكماء السياسيون الأقدمون، اتبعوا الأسياء عليهم السلام، في سلوك هذا الطريق وهذا الترتيب، أي بالابتداء من نقطة دينية فطرية تؤدي إلى تحرير الضمائر، ثم بالتتابع طريق التربية والتهذيب بدون فتور ولا انقطاع

أما المتأخرون من قادة العقول في الغرب فممنهم فئة سلكوا طريق الخروج بأسمهم من حظيرة الدين وأداة النفسية إلى قضاء الإطلاق وتربية الطبيعة. زاعمين أن الخطرة في الإنسان أهدي به سبيلاً، وحاجته إلى النظام تغنيه عن إغاثة الأديان، التي هي كالمخدرات، تقوم تعطل الحس بالهموم، ثم تلاهب بالحياة فيكون ضررها أكبر من نفعها.

وقد سبق هؤلاء الغلاة فئة اتبعت أثر الشيبين. ولم تحفل بطول الطريق، ونعبه فنجحت ورسخت، وأغنى بتلك الفئة أولئك

الحكماء الذين لم يأتوا بدين جديد، ولا تمسكوا بمعاداة كل دين
كمؤسسى جمهورية الفرنسييس، بل رنقوا فتوق الدهر فى دينهم
بما نحقوا وهذبوا وسهلوا وقربوا، حتى حدود وجعلوه صالحا
لتجديد خليف أخلاق الأمة.

فى هذا النص يحدد الكواكى منهجين للإصلاح

١ - منهج الأنبياء، والحكماء الأقدمين الذين اتبعوا منهاج
الأنبياء فى الإصلاح بالدين، والابتداء فى الإصلاح من
« نقطة دينية فطرية تؤدى الى تحرير الضمائر »

٢ - ومنهج « قادة العقول » أى أصحاب العقلانية المجردة من
الدين الذين - سلكوا طريق الخروج باسمهم من حظيرة الدين
وادابه النفسية، الى فضاء الإطلاق وثريية الطبيعة،
ولقد جذب الكواكى عن أصحاب هذا المنهج - العلمانى -
صفة « الحكماء »

ثم تحدث عن الغلاة منهم، الذين أسسوا الجمهورية الفرنسية
على العلمانية، بدلاً من أن يسلكوا طريق الحكماء فى تجديد
الدين حتى تتجدد به أخلاق الأمة.

وبعد هذا التحديد والتمييز لمناهج الإصلاح - الإصلاح
بالدين، أو الإصلاح العلمانى اللادينى - دعا الكواكى الشترقيين
إلى طريق الإصلاح بالدين المتجدد، فقال « ما أحوج الشرقيين
أجمعين الى حكماء يجددون النظر فى الدين، فيرجعون به الى

أصله المبين البريء من حيث تمليك الإرادة، ورفع البلاد من كل ما يشين، [فهو] المخفف شفاء الاستبداد والاستعباد، المبصر بطرائق التعليم والتعلم الصحيحين، لقيام التربية الحسنة، واستقرار الأخلاق المنتظمة، مما به يصير الإنسان إنساناً، وبه - لا بالكفر - يعيش الناس إخواناً.

وبعد تحديد الكواكبي للمسلمين وعموم الشرقيين طريق الدين لا الكفر طريق التجديد الديني لا العلمانية والعلوم العلمانية - سبيلاً للتقدم والنهوض والترقي - حذر الشرقيين من طريق الغرب - طريق العلمانية اللادينية - فقال - ليس من شأن الشرقي أن يسير مع الغربي في طريق واحدة، فإن طباعه لا تطاوعه على استباحة ما يستحسنه هذا الغربي - [الأعمال الكاملة ص ١٨٤-١٨٧]

ثم يعود الكواكبي إلى تأصيل تمايز طريق النهضة الإسلامية عن طريق النهضة الغربية، لافتاً الأنظار والأفكار إلى أن مرجع هذا التمايز والاختلاف هو تميز الإسلام عن النصرانية - فطبيعة الإسلام الشاملة مغايرة لطبيعة النصرانية - التي وقفت عند الفرد وخلص الروح - وعقلانية الإسلام مناقضة للعقلانية النصرانية الغربية.

نعم، لقد عاد الكواكبي إلى تأصيل تمايز طرق الإصلاح والنهوض في الشرق الإسلامي عنها في الغرب النصراني، فقال - إن بعض الاجتماعيين في الغرب يرون أن الدين يؤثر على الترفي الأفراد ثم الاجتماعي تأثيراً معطلاً، كفعل الأفيون في

الحس، أو حاجبنا. كالغيم يغطي نور الشمس، وهناك بعض الغلاة يقولون الدين والعقل ضدان متراحمان في الرعوس، وإن أول نقطة من الترقى تبدئ عند آخر نقطة من الدين. وإن أصدق ما يستدل به على مرتبة الرقى والانحطاط في الأفراد أو في الأمم الغابرة والحاضرة. هو مقياس الارتباط بالدين قوة وضعفا

وهذه الآراء كلها صحيحة لا مجال للشك عليها. ولكن بالنظر إلى الأدیان الخرافية أساسا أو التي لم تقف عند حد الحكمة. كالدين المبنى على تكليف العقل بتصور أن الواحد ثلاثة والثلاثة واحد لأن مجرد الانعان لما لا يعقل برهان على فساده مراكز العقل. ولهذا أصبح العالم المتمرد بعد الانتساب إلى هذه العقيدة من العار لأنه شعار الحمق

أما الأدیان المبنية على العقل المحض. كالإسلام الموصوف بدين الفطرة. الإسلام دين القرآن. أي الدين الذي يقوى على فهمه من القرآن كل إنسان غير مفيد الفكر فلا شك أن الدين إذا كان مبنيا على العقل. يكون أفضل صارف للفكر عن الوقوع في مصادم المخرفين. وأنفع وأزعم بضبط النفس من الشطط. وأقوى مؤثر لتهديب الأخلاق وأكثر معين على تحمل مشاق الحياة. وأعظم منسبط على الأعمال المهمة الخطرة. وأجل مثبت على المبادئ الشريفة. وفي النتيجة. يكون أصح مقياس يستدل به على الأحوال النفسية في الأمم والأفراد رقى وانحطاطا .

[الأعمال الكاملة ص ٢٠٠ - ٢٠٢]

هكذا أتبع الكواكبي القضية بحثاً وتمحيصاً.. فلم يكتف
بالانحياز - عبر الصفحات العديدة من آثاره الفكرية - إلى منهاج
الإصلاح بالإسلام وإنما انتقد العلمانية الغربية وغلوها
اللا ديني

معطفاً أنه إذا جاز أن يكون لها ما يبررها في ظلال المصراية
- التي تدع ما لقيصر لقيصر - مكتفية بما لله - أي بالخلاص
الفردى للروح - فإن هذه العلمانية لا تبرر لها - ولا حاجة إليها
ولا يمكن أن تكون مقبولة في ظلال الإسلام

لقد كان الكواكبي صديقاً للأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده
وصديقاً للإمام الشيخ محمد رشيد رضا - ونحن نجد في آثاره
الفكرية العديد من الشواهد على أنه كان شاملاً متفكيراً في مدرسة
الإحياء الديني، التي أرادت تحديد دنيا المسلمين بتحديد دين
الإسلام. والتي أعلنت عن أولوية النهضة الدينية - لياتي النظام
السياسي نهجاً للدين - كما يقول الكواكبي (الأعمال الكاملة
ص ٣٦١) - لأن الإصلاح كل الإصلاح - إنما يكون - أولاً وأخيراً
- بالإسلام.. وليس بالعلمانية التي تستبعد الإسلام.

كان ذلك هو القاسم المشترك بين أعلام هذه المدرسة الإحيائية

■ ولقد قرأناه عند رقاعة الطيطاوي (١٢١٦ - ١٢٩٠ هـ / ١٨٠١ -
١٨٧٣ م) في نقده للعلمانية اللا دينية وفلسفتها الوضعية -
التي رآها وخبرها في باريس - الذي قال:

أيوجد مثل باريس ديار

شموس العلم فيها لا تغيب؟

وليل الكفر ليس له صباح

أما هذا، وحققكم، عجيب؟

فهذه المدينة كباقي مدن فرنسا وبلاد الأفراح العظيمة
مشحونة بكثير من الفواحيش والبذع والضلالات. وإن كانت من
أحكام بلاد الدنيا وديار العلوم البرانية

إن أكثر أهل هذه المدينة إنما له من دين النصرانية الاسم
فقط، حيث لا ينبع دينه ولا غيرة له عليه بل هو من الفرق
المحسنة والمقبحة بالعقل، أو فرقة من الأناحيث الذين يقولون
إن كل عمل يأتى فيه العقل صواب. ولذلك فهو لا يصدق بشيء
مما فى كتب أهل الكتاب. لخروجه عن الأمور الطبيعية

وبعد رخص الطهطاوى لهذا النموذج العربى فى الفلسفة
الوضعية. وفى الموقف من الدين ومن الانحياز إلى الطبيعة على
مواجهة الدين. أعلن الانحياز للنموذج الإسلامى والمرجعية
الإسلامية فى الإصلاح والتقدم والنهوض. فقال

- إن تحسين النوااميس الطبيعية لا يعتد به إلا إذا قررد
الشارع والتكاليف الشرعية والسياسة التى عليها مدار نظام
العالم، مؤسسة على التكاليف العقلية الصحيحة الخالية عن
الموانع والشبهات لأن الشريعة والسياسة مبنيتان على الحكمة

المعقولة لنا أو التعبدية التي يعلم حكمتها المولى سبحانه
وليس لنا أن نعتد على ما بحسنه العقل أو بقبحه إلا إذا ورد
الشرع بتحسينه أو تقبيحه.

والذي يرشد الى تركبة النفس هو سياسة الشرع ومرجعها
الكتاب العزيز الجامع لأنواع المطلوب من المعقول والمفول. مع
ما اشتمل عليه من بيار السياسات المحتاج إليها في نظام
أحوال الخلق. كشرع الزواجر المفضية الى حفظ الأديان. والعقول
والأنساب. والأموال. وشرع ما يدفع الحاجة على أقرب وجه
يحصل به الغرض. كالبيع والأجارة والزواج وأصول أحكامها.
فكل رياضة لم تكن بسياسة الشرع لا تثمر العاقبة الحسنى

ولا عبرة بالنفوس القاصدة الذين حكموا عقولهم بما
اكتسبوه من الخواطر التي ركنوا إليها تحسبًا وتقبيحًا. وظنوا
أنهم فازوا بالمقصود بتعدي الحدود

فينبغي تعليم النفوس السياسة بطرق الشرع. لا بطرق
العقول المجردة

ومعلوم أن الشرع الشريف لا يحظر جلب المنافع ولا درء
المفاسد. ولا ينافي المتجددات المستحسنة التي يخترعها من
منحهم الله العقل والهمم الصناعة

وإن المعاملات الفقهية لو انتظمت وجرى عليها العمل لما
أخلت بالحقوق بتوفيقها على الوقت والحالة

فلما جاء جمال الدين الأفغانى [١٢٥٤-١٣١٤هـ/ ١٨٣٨-١٨٩٧م] كانت دعوته وحركته التأسيس للتيار الإحيائى للإسلام، والذي عدا عنواناً على نقد النموذج الغربى فى التحديث وعلى الانحياز إلى النموذج الإسلامى فى الإصلاح وفى ذلك كتب فقال

«انه لا ضرورة فى ايجاد المنفعة الى اجتماع الوسائط وسلوك المسالك التى جمعها وسلكتها بعض الدول الغربية ولا ملحق لئسرفى فى بدايته أن ينفذ موقف الأوربي فى نهايته بل ليس له أن يطلب ذلك وفيما مضى اصدق شاهد على أن من طلبه - [من دعاة التحديث على النمط الغربى] فقد أوفر - [عجز] - نفسه وامته وقرا وأعجزها وأعوزها

لقد شيد العثمانيون عددا من المدارس على النمط الجديد وبعثوا بطوائف من تباينهم إلى البلاد الغربية ليحملوا إليهم ما يحتاجون إليه من العلوم والمعارف والآداب وكل ما يسمونه «تقدما» وهو فى الحقيقة تمدن للبلاد التى نشأ فيها على نظام الطبيعة وسير الاجتماع الإنسانى

فهل انتفع المصريون والعثمانيون بما قدموا لأنفسهم من ذلك وقد مضت عليهم أزمان غير قصيرة بعد ربما واحد بينهم أفراد يتشوقون بألفاظ الحرية والوطنية والجنسية وما شاكلها وسموا أنفسهم زعماء الحرية ومنهم آخرون قلبوا أوضاع المبانى والمساكن وبدلوا هياكل الماكن والملابس والفرس

والأثنية، وسائر الماعون، وتنافسوا في تطبيقها على أجود ما يكون منها في الممالك الأجنبية. وعدوها من مفاخرهم فنقوا بذلك ثروة بلادهم إلى غير بلادهم. وأمانوا أرباب الصنائع من قومهم. وهذا جدرع لأنف الأمة بشوه وجهها. ويحط بشانها.

لقد علمتنا التجارب أن المقلدين من كل أمة، المنتحلين أطوار غيرها، يكونون فيها منافذ لتطرق الأعداء اليها. وطلاب لجيوش الغالبيين وأرباب الغارات يمهدون لهم السبيل. ويفتحون الأبواب، ثم يثبتون أقدامهم.

إن المقلدين لتمدن الأمم الأخرى ليسوا أرباب تلك العلوم التي ينقلونها، وإنما هم حملة نقلة لا يراعون فيها النسبة بينها وبين مشارب الأمة وطباعها. وهم ربما لا يقصدون إلا خيرا، إن كانوا من المخلصين، لكنهم يوسعون بذلك الخروق حتى تعود أبوابها لتدخل الأجنبي فيهم نحن اسم النصحاء. وعنوان المصلحين. وطلاب الإصلاح فيذهبون بامتهم إلى الفناء والاضمحلال. ويسر المصير.

إن نتيجة هذا التقليد للتمدن الغربي عند هؤلاء الناشئة المقلدين ليست إلا توطيد المسالك والركون إلى قوة مقلديهم، فيبالغون في تطمين النفوس، ونسكين القلوب حتى يزيلوا الوحشة التي قد بصون بها الناس حقوقهم ويحفظون بها استقلالهم ولهذا منى طرق الأجنبي أرضا لاية أمة تر هؤلاء المتعلمين - المقلدين - فيها أول من يقبلون عليهم ويعرضون

أنفسهم لخدمتهم كأنما هم منهم، ويعدون الغلبة الأجنبية في بلادهم أعظم بركة عليهم»^(١)

ويعد هذا النقد اللاذع - إلى حد الاتهام بالعمالة - للمقلدين للمنموذج الغربي في التمدن والتحديث ذهب جمال الدين الأفغاني إلى الحديث عن «الدليل الحضاري الإسلامي» المنطلق من مرجعية الدين الإسلامي في النهضة والإصلاح فقال:

«إن الدين هو قوام الأمم، وبه فلاحها، وبه سعادتها وعليه مدارها، ولقد أكسب الدين عقول البشر ثلاث عقائد، وأودع نفوسهم ثلاث خصال، كل منها ركز لوجود الأمم وعماد لبنائها هيئتها الاجتماعية وأساس محكم لمدينتها، وفي كل منها سائق يحث الشعوب والقبائل على التقدم لغايات الكمال والرفق إلى ذرى السعادة، ومن كل واحدة وازع قوى يباعد النفوس عن الشر، ويرغبها عن مفارقة الفساد، ويصدنها عن مقارنة ما يبيدها ويبذرها»

العقيدة الأولى التصديق بأن الإنسان ملك أرضي، وهو أشرف المخلوقات.

والثانية يقين كل ذي دين بأن أمته أشرف الأمم، وكل مخالف له فعلى ضلال وباطل.

(١) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني] ص ١٩٩ - ١٩٧ - ٢٢٢ دراسة وتحقيق د محمد عمارة - طبعة القاهرة - سنة ١٩٦٨م

والثالثة جزمه بأن الإنسان إنما ورد هذه الحياة الدنيا لاستحصال كمال بهينه للعروج إلى عالم أرفع وأوسع من هذا العالم الدنيوي.

فلم تبق ريبة في أن الدين هو السبب المفرد لسعادة الإنسان ولو قام الدين على قواعد الأمر الإلهي الحق، ولم يخالطه شيء من أباطيل من يزعمونه ولا يعرفونه، فلا ريب أنه سيكون سبباً في السعادة النامة والنعيم الكامل، ويذهب بمعتقديه جواد الكمال الصوري والمعنوي، ويصعد بهم إلى دروة الفضل الظاهري والباطني، ويرفع أعلام المدنية لطلابها، بل يفيض على التمدين من ديم الكمال العقلي والنفسى ما يظفرهم بسعادة الدارين.

لا أطيل عليك بحثاً ولا أذهب بك في مجالات بعيدة من البيان، ولكنى أستلفت نظرك إلى سبب يجمع الأسباب، ووسيلة تحيط بالوسائل، أرسل فكرك إلى نشأة الأمة التي خملت بعد نباهة، واطلب أسباب نهوضها الأول، إنه دين قويم الأصول، محكم القواعد، شامل لأنواع الحكم، باعث على الألفة، داع إلى المحبة، مركز للنفوس، مظهر للقلوب من أدران الخسائس، منور للعقول بإشراق الحق من مطالع قضاياه، كافل لكل ما يحتاج إليه الإنسان من مبانى الاجتماعات البشرية، وحافظ وجودها، ويتأدى بمعتقديه إلى جميع فروع المدنية.

فإن كانت هذه شرعة تلك الأمة، ولها وردت وعنها صدرت، فما نراه من عارض خللها، وهبوطها عن مكانتها، إنما يكون من

طرح تلك الأصول ونبذها ظهريا فعلاجها الناجع إنما يكون
برجوعها إلى قواعد دينها، والأخذ بأحكامه على ما كان في
بدايته ولا سبيل للياس والقنوط، فإن جرائم الدين متصلة
في النفوس والقلوب مطمئنة إليه وفي زواياها نور خفي من
محبه فلا يحتاج القائم بإحياء الأمة إلا إلى نفخة واحدة
يسرى نفسها في جميع الأرواح لأقرب وقت فإذا قاموا وجعلوا
أصول دينهم الحق نصب أعينهم، فلا يعجزهم أن يبلغوا في
سيرهم منتهى الكمال الإنساني

ومن طلب إصلاح أمة شأنها ما ذكرنا بوسيلة سوى هذه، فقد
ركب بها شططا، وجعل النهاية بداية، وانعكست التربية واستعكس
فيها نظام الوجود، فينعكس عليه القصد ولا يريد الأمة
إلا نحسا، ولا يكسبها إلا تعسا

ومن يعجب من قولي إن الأصول الدينية الحق تنسئ للأمم
قوة الاتحاد، وانتلاف الشغل، وتفضيل الشرف على لذة الحياة،
وتبعثها على افتناء الفضائل، وتوسيع دائرة المعارف، وتنتهي
بها إلى أقصى غاية في المدنية، فإن عجبى من عجيبه أشد

ودونك تاريخ الأمة العربية وما كانت عليه قبل الإسلام من
الهمجية حتى جاءها الدين فوحدها، وقوامها، ونور عقلها، وقوم
أخلاقها، وسدد أحكامها، فسادت على العالم

(النصر السابق من ١٣٩، ١٤١، ١٤٣، ١٤٧، ١٤٩)

هكذا صاغ جمال الدين الأفغانى - لحركة الإحياء الإسلامى -
« بيان الإصلاح بالإسلام » !

■ أما الإمام محمد عبده [١٢٦٥ - ١٣٢٣ هـ / ١٨٤٩ - ١٩٠٥ م]
فكان المهندس الأول الذى فصل الحديث فى هذا الاتجاه -
الإصلاح بالإسلام

لقد انتقد مادية المدنية الغربية . فقال

« إن هذه المدنية هى مدنية الملك والسلطان . مدنية الذهب
والفضة . مدنية الخخفخة والمهرج . مدنية الختل والنفاق
وحاكمها الأعلى هو الجنبه . عند قوم . و اللبرا . عند قوم
آخرين . ولا دخل للإنجيل فى شيء من ذلك »

وتعجب من فلاسفتها وعلمانيها - الذين اكتشفوا كثيراً مما
يفيد فى راحة الإنسان ونوفير راحته - وتعزير نعمته . ثم
أعجزهم أن يكتشفوا طبيعة الإنسان ويعرضوها على الإنسان
حتى يعرفها فيعود إليها . لقد صقلوا المعادن حتى كان
الحديد اللامع المضىء . أفلا يقيس لهم أن يجلوا ذلك الصدا
الذى غشى الفطرة الإنسانية . ويصقلوا تلك النفوس حتى يعود
لها لمعاتها الروحية »

لقد حار الفيلسوف - هربرت سبنسر - [١٨٢٠ - ١٩٠٣ م] فى
حال أوربا . وأظهر عجزه مع فؤد العلماء فأبر الذواء . إنه

الرجوع إلى الدين الذي كشف الطبيعة الإنسانية وعرفها إلى أربابها في كل زمان. لكنهم يعودون فيجهلون^(١) وبعد هذا النقد لمادية المدنية الغربية، تلك المادية التي أعجزتها عن اكتشاف التدين الفطري للإنسان. تحدث الإمام محمد عبده عن وسطية الإسلام، التي جعلته دين القطرة الإنسانية السوية. وعن تفرد بكونه المهبأج الأول والأفعل في الإصلاح فقال:

«لقد ظهر الإسلام لا روحياً مجرداً، ولا جسدياً حامداً بل إنسانياً وسطاً بين ذلك أخذاً من كلا القبيلين بنصيب. فتوافر له من ملاءمة الفطرة البشرية ما لم يتوافر لغيره. ولذلك سمي نفسه دين القطرة وعرف له ذلك خصوصاً اليوم. وعدوه المدرسة الأولى التي يرقى فيها البرابرة على سلم المدنية. لقد جاء الإسلام كاملاً للشخص. وألفه في البيت ونظاماً للفلك امتازت به الأمم التي دخلت فيه عن سواها ممن لم يدخل فيه^(٢).
ثم تحدث عن الإسلام كمسبيل مفرد للتقدم والنهوض والإصلاح فقال:

«إن أهل مصر قوم أذكاء يغلب عليهم لين الطباع، واشتداد القابلية للنأثر لكنهم حفظوا القاعدة الطبيعية وهي أن البذرة لا

(١) الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده، ج ٢، ص ٢٠٦، ٢٠٧، رسالة والتفكير

د. محمد عمارة - طبعة بيروت - سنة ١٩٧٢ م

(٢) المصدر السابق ج ٢، ص ٢٢٥، ٢٢٦، ٢٨٧

تنبت في أرض إلا إذا كان مزاج البذرة مما يتغذى من عناصر الأرض، ويتنفس بهوائها، ولا ماتت البذرة بدون عيب على طبقة الأرض وجودها، ولا على البذرة وصحتها، وإنما العيب على البادر أنفس المصريين أشربت الانقياد إلى الدين حتى صار طبعها فيها، فكل من طلب إصلاحها من غير طريق الدين فقد بذر بذرا غير صالح للتربة التي أودعه فيها، فلا ينبت ويضيع ثعبه، ويخفق سعبه، وأكبر شاهد على ذلك ما شوهد من أثر التربية التي يسمونها أدبية من عهد محمد على [١١٨٤ - ١٢٦٥هـ/ ١٧٧٠ - ١٨٤٩م] إلى اليوم فإن المأخوذين بها لم يزدادوا إلا فسادا وإن قبل إن لهم شيئا من المعلومات - فعالم تكرر معارفهم وأدابهم مبنية على أصول دينهم فلا أثر لها في نفوسهم

إن سبيل الدين لمريد الإصلاح في المسلمين، سبيل لا مندوحة عنها، فإن إتيانهم من طرق الأدب والحكمة العارفة عن صبغة الدين يحوجه إلى إنشاء بناء جديد ليس عنده من مواد شتى ولا يسهل عليه أن يجد من عماله أحدا

وإذا كان الدين كافلا بتهديب الأخلاق وإصلاح الأعمال، وحمل النفوس على طلب السعادة من أبوابها، ولأهلها من الثقة فيه ما ليس لهم في غيره، وهو حاضر لديهم والعناء في إرجاعهم إليه أخف من إحداث ما لا أمام لهم به، فقد العدول عنه إلى غيره^(١)

(١) المصدر السابق ج ٣ ص ٦٠٩ - ٢٣١

هكذا تبلور في شرقنا الإسلامي تيار «الإصلاح بالإسلام» في مواجهة تيارات «التحديث على النمط الغربي». منذ بدايات الاحتكاك بيننا وبين النموذج الحضاري الغربي، الذي جاءنا في ركاب الغزوة الأوربية الحديثة.

وتألق في هذا الميدان أعلام للإحياء الإسلامي من مثل الشيخ حسن العطار إلى رفاعة الطهطاوي، إلى جمال الدين الأفغاني، وحتى المهندس الأكبر لهذا التيار الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، الذي تكوّن من حول مشروعه الإصلاحى أكبر المدارس الفكرية، الممتدة أغصانها حتى هذه اللحظات.

وهى المدرسة التى كان الكواكب علما متميزا بين أعلامها العظام. وليس - كما زعم أنطون سعادة - وجان بابا - من أنه كان إمام العلمانية فى فكرنا الحديث.

المصادر والمراجع

- ١- الأفغانى [الأعمال الكاملة] دراسة وتحقيق د محمد عمارة -
طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨ م
- ٢- أنطور سعادة [الآثار الكاملة] - طبعة سنة ١٩٤٠ م
- ٣- جاز داية [الإمام الكواكبي فصل الدين عن الدولة] - طبعة
المملكة المتحدة - سنة ١٩٨٨ م
- ٤- الطهطاوى [الأعمال الكاملة] دراسة وتحقيق د محمد
عمارة - طبعة بيروت سنة ١٩٧٣ م.
- ٥- عبد الرحمن الكواكبي [الأعمال الكاملة] دراسة وتحقيق
د. محمد عمارة - طبعة بيروت سنة ١٩٧٥ م.
- ٦- د محمد حميد الله (محقق) [مجموعة الوثائق السياسية للعهد
النبوي والخلافة الراشدة] - طبعة القاهرة - سنة ١٩٥٦ م.
- ٧- محمد رشيد رضا [مجلة المنار] سنة ١٢١٧ هـ و ١٣٢٠ هـ
- ٨- محمد عبده [الأعمال الكاملة] دراسة وتحقيق د محمد
عمارة - طبعة بيروت - ١٩٧٢ م.

الفهرس

٣	تقديم
٦	١- بطاقة حياة
١٠	٢- دعوى علمانية الكواكبي
٣١	٣- الإسلام والعلمانية
٣٩	٤- الكواكبي والفصل بين السلطين
٤٣	٥- الرفض الكواكبي للعلمانية
٦٧	المصادر والمراجع
٦٨	الفهرس

سلسلة «في التنوير الإسلامي»

١. الصحوة الإسلامية في عيون عربية
٢. العرب والإسلام
٣. أبو حنيفة النوفلي
٤. دراسة قرآنية في فقه المذاهب احنافى
٥. ابن رشد بين العرب والإسلام
٦. الانتماء الثقافي
٧. تقصير العالم
٨. التعددية الشريعة الإسلامية والتحديات
٩. صراع القيم بين العرب والإسلام
١٠. يوسف القرضاوى: المروسة الفكرية والمنهج الفكرى
١١. تأملات في التفسير الحنافى للقرآن الكريم
١٢. عندما دخلت مصر في دين الله
١٣. الميراثات الفقهية في مصر
١٤. السهام الفقهية
١٥. السور - المقام
١٦. منهجية الفقهاء من الطريقة والمصنف
١٧. تحديد الدنيا بتحديد الدين
١٨. الثواب والتعجيرات في اليقظة الإسلامية الحديثة
١٩. تقصير كتب الإسلام وأصول الحكم
٢٠. العلم والإصلاح بالمسجد العربي
٢١. فكر حركة الأستارة وتناقضاته
٢٢. حرية التعبير في العهد من مئذنة رضى إلى روحية حرورى
٢٣. إسلامية الصراع حول القدس وفلسطين
٢٤. احنافيات العالمية (الدين، العلم، السياسة)
٢٥. المنهجية الفقهية الحديثة: أمثلة وأصول
٢٦. الحملة الفرنسية في الميزان
٢٧. الإسلام في عيون عربية: دراسات سويسرية
٢٨. التقاليد العرفية والعرفية الفقهية والتقاليد العرفية
٢٩. ميراث المرأة والفقهية الحديثة
٣٠. نفقة المرأة وقضية المساواة
٣١. الدين والحرية: التعارض والتكامل في الفكر

د. محمد عماره

د. محمد عماره

د. محمد عماره

د. محمد عماره

د. محمد عماره

د. محمد عماره

د. محمد عماره

د. محمد عماره

د. محمد عماره

د. محمد عماره

د. محمد عماره

د. محمد عماره

د. محمد عماره

د. محمد عماره

د. محمد عماره

د. صلاح الدين

د. محمد عماره

د. محمد عماره

د. محمد عماره

د. محمد عماره

د. محمد عماره

د. محمد عماره

د. محمد عماره

د. محمد عماره

د. محمد عماره

د. محمد عماره

د. محمد عماره

د. محمد عماره

د. محمد عماره

د. محمد عماره

د. محمد عماره

٣٢- محاضرات العولمة على الهوية الثقافية	د محمد عمارة
٣٣- الفناء والموسيقى خلال أم حوراء؟	د محمد عمارة
٣٤- صورة العرب في أمريكا	تريخنة وتغنيق / أ. ثابت عبد
٣٥- هل المسلمون أمة واحدة؟	د محمد عمارة
٣٦- السنة والدعة	تقديم وتحقيق / د محمد عمارة
٣٧- الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان	تقديم وتحقيق / د محمد عمارة
٣٨- قضية المرأة بين التحرير والتعزير حول الأئمة	د عبد الوهاب المسيري
٣٩- مركسة الإسلام	أ. منصور أبو شافعي
٤٠- في الإسلام كما تؤمن به صواب وملاح	د يوسف القرضاوي
٤١- صورة الإسلام في التراث العربي	تريخنة / أ. ثابت عبد
٤٢- تحليل الواقع بمناهج الفاضات العرومية	د محمد عمارة
٤٣- القدس من اليهودية والإسلام	د محمد عمارة
٤٤- مأزق المسيحية والعلمانية في أوروبا (شهادة ألعابية)	تقديم وتغنيق / د محمد عمارة
٤٥- الآثار التربوية للعبادات في النوح والأخلاق	د صلاح الدين سلطان
٤٦- الآثار التربوية للعبادات في العقل والوجد	د صلاح الدين سلطان
٤٧- السنة النبوية والمعرفة الإنسانية	د محمد عمارة
٤٨- نظرات حصارية في القصص القرآني	د محمد بوقي
٤٩- الحوار بين الإسلاميين والعلمانيين	د محمد عمارة
٥٠- الإعلان الإسلامي لحقوق الإنسان	تقديم / د محمد سليم العوا
٥١- عن القرآن الكريم	الشيخ / أمين انخولي
٥٢- في فقه الأقليات المسلمة	د طه جابر عتوار
٥٣- مستقبلنا بين العالمية الإسلامية والعولمة الغربية	د محمد عمارة
٥٤- مركسة التاريخ	أ. منصور أبو شافعي
٥٥- نقل الأعضاء في ضوء الشريعة والقانون	دكتور / طارق البشري
٥٦- السنة التشريعية وغير التشريعية	محمد الفاضل بن عاشور
٥٧- شبهات حول الإسلام	الشيخ / علي الخفيف
٥٨- نحو طمس نفسي إسلامي	د محمد عمارة
٥٩- واقعا بين الغالمانية ونضام الحصار	د وائل أبو عيسى
٦٠- بناء المفاهيم الإسلامية	عقبة فتحي العويش
٦١- المستقبل الاجتماعي للأمة الإسلامية	د سيف الدين عبد الفتاح
٦٢- شبهات حول القرآن الكريم	د محمد عمارة

٣٢- محاضرات العولمة على الهوية الثقافية	د محمد عمارة
٣٣- الفناء والموسيقى خلال أم حوراء؟	د محمد عمارة
٣٤- صورة العرب في أمريكا	تريخنة وتغنيق / أ. ثابت عبد
٣٥- هل المسلمون أمة واحدة؟	د محمد عمارة
٣٦- السنة والدعة	تقديم وتحقيق / د محمد عمارة
٣٧- الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان	تقديم وتحقيق / د محمد عمارة
٣٨- قضية المرأة بين التحرير والتعزير حول الأئمة	د عبد الوهاب المسيري
٣٩- مركسة الإسلام	أ. منصور أبو شافعي
٤٠- في الإسلام كما تؤمن به صواب وملاح	د يوسف القرضاوي
٤١- صورة الإسلام في التراث العربي	تريخنة / أ. ثابت عبد
٤٢- تحليل الواقع بمناهج الفاضات العرومية	د محمد عمارة
٤٣- القدس من اليهودية والإسلام	د محمد عمارة
٤٤- مأزق المسيحية والعلمانية في أوروبا (شهادة ألعابية)	تقديم وتغنيق / د محمد عمارة
٤٥- الآثار التربوية للعبادات في النوح والأخلاق	د صلاح الدين سلطان
٤٦- الآثار التربوية للعبادات في العقل والوجد	د صلاح الدين سلطان
٤٧- السنة النبوية والمعرفة الإنسانية	د محمد عمارة
٤٨- نظرات حصارية في القصص القرآني	د محمد بوقي
٤٩- الحوار بين الإسلاميين والعلمانيين	د محمد عمارة
٥٠- الإعلان الإسلامي لحقوق الإنسان	تقديم / د محمد سليم العوا
٥١- عن القرآن الكريم	الشيخ / أمين انخولي
٥٢- في فقه الأقليات المسلمة	د طه جابر عتوار
٥٣- مستقبلنا بين العالمية الإسلامية والعولمة الغربية	د محمد عمارة
٥٤- مركسة التاريخ	أ. منصور أبو شافعي
٥٥- نقل الأعضاء في ضوء الشريعة والقانون	دكتور / طارق البشري
٥٦- السنة التشريعية وغير التشريعية	محمد الفاضل بن عاشور
٥٧- شبهات حول الإسلام	الشيخ / علي الخفيف
٥٨- نحو طمس نفسي إسلامي	د محمد عمارة
٥٩- واقعا بين الغالمانية ونضام الحصار	د وائل أبو عيسى
٦٠- بناء المفاهيم الإسلامية	عقبة فتحي العويش
٦١- المستقبل الاجتماعي للأمة الإسلامية	د سيف الدين عبد الفتاح
٦٢- شبهات حول القرآن الكريم	د محمد عمارة

٦٣- أروحة العقل العربي

٦٤- في التحرير الإسلامي للمرأة

٦٥- روح الحضارة الإسلامية

٦٦- الغرب والإسلام اقتراءات لها تاريخ

٦٧- السماحة الإسلامية

٦٨- الشيخ عبد الرحمن الكواكبي هل كان علمانياً؟

٦٩- صلة الإسلام بمصالح المسيحية

٧٠- بين التمدد والتحديث

٧١- الوفاء والتمعية المستقلة

٧٢- الرسالة القرآنية والتفسير الحضاري للقرآن الكريم

د. فؤاد زكريا

د. محمد عمارة

د. محمد عمارة

الشيخ/ محمد الفاضل بن عاشور

تعليق وتقديم/ د. محمد عمارة

د. محمد عمارة

د. محمد عمارة

د. محمد عمارة

الشيخ/ أمين المولى

تقديم/ الإمام الأكبر الشيخ/

محمد مصطفى المراغي

تمهيد/ د. محمد عمارة

د. سيف الدين عبد الفتاح

تقديم/ د. محمد عمارة

د. إبراهيم اليموني غانم

تقديم/ د. محمد عمارة

د. سيد تامر في حسن



احصل على أي من إصدارات شركة نهضة مصر (كتاب / CD)
وتمتع بأفضل الخدمات عبر موقع البيع : www.enahda.com



إلى القارئ العزيز ..

في هذه السلسلة الجديدة :

إذا كان «التنوير الغربي» هو تنوير علماني، يستبدل العقل بالدين، ويقيم قطيعة مع التراث-

فإن «التنوير الإسلامي» هو تنوير إلهي : لأن الله والقرآن والرسول - صلى الله عليه وسلم - أنوار تصنع للمسلم تنويراً إسلامياً متميزاً.

ولتقديم هذا « التنوير الإسلامي » للقراء، تصدر هذه السلسلة، التي يسهم فيها أعلام التجديد الإسلامي المعاصر:

- | | |
|-------------------------|-------------------------|
| • د. محمد عـبارة | • المستشار/ طارق البشري |
| • د. سيف عبد الفتاح | • د. محمد سليم العوا |
| • أ. فهمي هويدي | • د. يوسف القرضاوي |
| • د. سيد سوقى | • د. كمال الدين إمام |
| • د. عبد الوهاب المسيري | • د. شريف عبد العظيم |
| • د. عادل حسـين | • د. صلاح الدين سلطان |

وغيرهم من المفكرين الإسلاميين ..

إنه مشروع طموح : لإزالة العقل بأنوار الإسلام.

الناشر

